الفصل الثانى

أثر الفلسفة الذاتية

فى العمل الأدبى العربى الحديث

فى مصر

١ ـ الشعر الغنائى

٢ ـ القصـــــــة

٣ ـ المسرحيـــــة

أولا ـ الشعر الغنائى

وفى مصر وجدنا شعراء جماعتى «الديوان» و«أبولو» قد تأثروا بالفلسفات الأوروبية الذاتية «المثالية» فى الجمال وآراء أصحاب الرومانسية الأوروبية وانعكست هذه الفلسفات والآراء على قصائدهم الغنائيـة .

وتجسدت هذه المثالية فى شعرهم الوجدانى الذاتى الذى صور أحاسيسهم الذاتية .

يقول عبدالرحمن شكرى فى قصيدته «شكوى الزمان» :

كـفى حزنـا أن التطلـب بالصـبر
وإن مآقـى العـين أدمعهـا تجـرى
لقـد لفظتنـى رحمـة الله يافعـا
فصـرت كأنـى فى الثمانين من عمـرى
رضيـت بهـذا العيـش بعـد أبـوة
لأبلـغ شـأوا أو أغيـب فـى قبـرى
وحـاول منـى الهـم صـبرا فـلم أزل
أدافعـه حتـى أبحـت لـه صـدرى
وإنـى لأدرى أن فـى المـوت راحـة
وأجنبـه حتـى كأنـى لا أدرى
ولـولا تقـى لا يملـك اليـأس صرفـه
لأوردنـى يأسـى عـلى المسلـك الوعـر
فمـا أسـرع الأحـداث أن قلـت أبطئـى
ومـا أبطـأ الآمـال إن سمنهـا نصـرى

فـأن كـان ذنبـى مـن تناقـض خطتـى
فعـذرى إلـى الأيـام أن ضـاق بـى عـذرى
ورب ليـــال بـــت أدحـــو ظلامهـــا
بطرفـى وذيـل الليـل يعـثر بالفجـــر
وزاولـت صـرف الدهـر حتـى عرفتـه
فسيـان مالاقيـت فـى العسر واليسـر
دعانـى إليـــه الفضـل لمـا دعوتـــه
فمـازال بـى حتـى التقينـا عـلى قـدر
فمـــا ساءنـى مـا بـــت أخفيـه جاهـدا
ولا سرنـى مـا يعـلم النـاس مـن أمـرى
هـل العيـــش إلا أن تنـــال بعزمـــة
مقامـا كـأن النجـم مـن تحتـه يسـرى
فمـا العـــزم إلا مـا يبلغـــك المنـــى
ومـا العجـــز إلا أن تنهنـــه بالزجـــر
إذا كنـت ذا عســـر فكـن ذا قناعـة
فأن احتمـال العسر يذهـب بالعسـر[1]

فى هذه القصيدة نجد عبدالرحمن شكرى شاعر جماعة الديوان يعانى القلق وتميزت أبياتها بالشجن والألم والشكوى .

ونرى الشاعر فى هذا العمل الأدبى وقد راح يعبر عن أحزانه وينظر إلى الحياة بمنظار أسود فكانت أنغامه قاتمة يغلب عليها طابع الحزن واليأس والتشاؤم .

---

(١) عبدالرحمن شكرى : ديوان عبدالرحمن شكرى ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٦٠ ص ٣٢ - ٣٣ .

وأنت واجد عبدالرحمن شكرى فى هذه القصيدة وقد سيطرت عليه الهموم ، وفضل أن يكون بعيدا عن الناس ولا يخالطهم حتى لا يكونون على دراية بمعاناته .

وهذه الحالة النفسية ينقلها الشاعر فى قصيدته «قلب اليائس» التى يقول فيها :

ضـــاق قلبـــى بمـــا يجـــ ـــن ونفســـى بمـــا تشـــا
فهـــى كالبيـــت مغلـــق نـــازح الأهـــل قـــد خـــوى
راكـــد الجـــو قاتـــم فاســـد المـــاء والهـــوا
يفـــزع المـــرء مـــن صـــدا ه إذا ردد الصـــــدى
يحســـب الجـــن قـــد ثـــوى جمعهـــا فيـــه ماثـــوى
أغـــير اللـــون عابـــس مظلـــم الأرض والسمـــا
ضـــاق صـــدرى بمـــا يجـــ ـــن ونفســـلى بمـــا تشـــا
فهـــى كالبيـــت مفـــزع يفـــزع الطـــرقه بالدمـــا
أهلـــك النفـــس جـــارم فاتـــك النفـــس مـــا ارعـــوى
أصبـــح البيـــت خاليـــا مسكـــن البـــوم والدجـــى
يسمـــع العابـــر المجـــ ـــد صراخـــا إذا دنـــا
أسكـــت القلـــب وقعـــه روع الأمـــن والكـــرى
ضـــاق صـــدرى بمـــا يجـــ ـــن وروحـــى بمـــا يشـــا
فهـــو قـــبر لعـــالم قبـــل ذا الكـــون قـــد مضـــى
كـــل روح وذيلـــة تهـــب العـــين مـــا يـــرى(٢)
فتـــرى العـــين مايجـــىء ويبـــدو الـــذى انقضـــى

(٢) الوذيلة : المرآة .

كـــان كالكـــون واسعـــا لايـــرى بعـــده مـــدى

قضـــى الأمـــر فانقضـــى بقـــى السعـــى والمـــنى

ضـــاق قلـــبى بمـــا يجـــ ـــن ونفســـى بمـا تشـــا[٣]

ونقول إن قصيدة «قلب اليائس» من الشعر المرسل ، وفيها تحرر عبدالرحمن شكرى من وحدة القافية فوجدنا أبياتها متعددة القوافى وكانت على نمط الشعر الغنائى عند شكسبير وغيره من الشعراء الرومانسيين الذين تأثر بهم الشاعر المصرى .

وفى القصيدة وجدنا عبدالرحمن شكرى يرسم صورة لقلبه اليائس ، وجسد فى أبياتها ما يعانيه من آلام .

وأنت واجد الشاعر وقد جعل الحزن الدفين يشيع فى أبياتها ، كما نلمس فى هذا العمل الأدبى إحساس الشاعر بالأسى واليأس .

وهذا التشاؤم نجده فى قصيدته «الأزاهير السود» التى يقول فيها :

قـــد جنينـــا مـــن أزاهـــير الـــردى

زهـــرة اليـــأس وأزهـــار الأســـى

زهـــرة ســـوداء لا تعـــد لهـــا

زهـــرة حمـــراء مـــن زهـــر الهـــوى

كيـــف نهـــوى زهـــرة ، أوراقهـــا

مـــن دمـــوع الصـــب تنـــدى والدمـــا

تشعـــل الوجـــد ولوعـــات الغليـــل

وهـى مثـل الجـرح فى صـدر القتيـــل

---

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

ودمـاء القلـب تجـرى بسيـل

دمـــه رى جـــذور وأصـــول

كلمـــا زاد احمـــرار لونهـــا

راح جسمـــى بشحـــوب ونحـــول

قـد جنينـا مـن أزاهـير الشقـاء

زهـرة سـوداء مـن زهـر القضـاء

تبـدل النفـس سـوادا مـن ضيـاء

ليـس تنمـو فـى رجـاء أو رخـاء

تنفـــح الســـم أريجـا والبـلاء

وهـى تغـذى مـن زفـير وبكـاء

كـم جنينـا مـن أفانـين الألـم

زهـــرة سـوداء مـن زهـر النـدم

لونهـــا المأخـوذ مـن لـون الظـلم

عابـــس فـــوق شفـاه المبتســم

زهـرة سـوداء مـن زهـر النقـم

فهـى طيـف مـن ممـات قـد ألـم

كـم جنينـا مـن أزاهـير القـدر

وأفانـــين صـــروف وغـــير[٤]

زهـــرة سـوداء مـن زهـر الضجـر

وهـــى مـن بنـت همـوم وكـدر

---

(٤) الغير : تقلبات الدهر .

فهـــى بالليـــل سهـــاد وسهـــر

وهى فى الصبح الشقـاء المنتظـر
هـــذه الأزهـــار ســـود كالقضـــاء

فـــى ريـــاض مـــن شقـــاء وعنـــاء
ليـــس لـــى منهـــا مفـــر أو نجـــاء

فهـــى حولـــى فـــى صبـــاح ومســـاء
إن هـــــذا العيـــــش داء أى دواء

ليس يحـى بشكـاة أو بكـاء ![(٥)]

وفى هذه القصيدة نجد الشاعر قد تحرر من وحدة القافية ، وجعل أبياتها متعددة القوافى . وفيها نجد الطابع الحزين الذى تجسد فى جميع دواوينـــه .

ويكشف العمل الأدبى ما ينتاب الشاعر من إحساس مرير . ونراه وقد جعل هذا التشاؤم وقد انعكس على أزهار الحياة فأصبحت شقاء .

وهكذا ، وجدنا الشاعر يبدد عطر زهر الحياة ويجعله ضنكا وكدرا ووصلت به مغالاته فى التشاؤم إلى الحد الذى رأيناه قد أسرف فى قلب صورة الزهر وعطره .

وتجرنا قصيدة «الأزاهير السود» إلى الحديث عن موضوع آخر من الموضوعات التى نظم فيها شعراء الوجدان الذاتى ونعنى به الطبيعة .

يقول عباس محمود العقاد فى قصيدته (ليالى رأس البر) :

مناظـــر مـــن سحـــر الجمـــال أراهـــا

ولـــولا سناهـــا قلـــت كنـــت أراهـــا

---

(٥) ذاتـــه ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

تلـوح كذكـرى حالـم يستعيدهـا
لعمـق معانيهـا ، وبعـد مداهـا
فمن عـالم النسيـان فيهـا مشابـه
وفيهـا من السلوى جميـل رضاهـا
ليـال بـرأس البـر تنـدى وداعـة
ورقـة أشجـان ، وطـاب نداهـا
وداعـة ذات الـدل شاب فؤادهـا
شوائب من هجـر ، فـراض صباهـا
ليـال بـرأس البـر طـاب نداهـا
وشفـت دياجيهـا ورق سناهـا
هنا النيل ساج طال فى الدهر سيره
وطالـت مرامـى نبعـه فسلاهـا
هنا البحـر ثوار الدهور على الكرى
ويطغى فلا يحصى النفوس كراهـا
إذا استرسلت أصداؤه فى اطرادهـا
ترسلـت الأحـلام مـلء مناهـا
هنا عالم السلوى ، هنا العالم الـذى
تحـس الليالـى فيـه همـس خطاهـا
هنـا العـالم المشهـود ذكـرى قديمـة
وذكـراك دنيـا لاتـزال تراهـا
فلـولا حياتـى فـى عروقـى أحسهـا
لقلـت نعيـم الغابريـن طواهـا

جمالك - رأس البر - فى زى ناسك

إذا ضاحك العين الضحوك شجاها

لياليك - رأس البر - فى صومعاتها

مناسك ضلت فى الظلام هداها

صحابك - رأس البر - أطياف نائم

تساوى لديها صبحها ودجاها

عناها الذى يعنى النيام من الرؤى

ولم أر جهدا فى الحياة عناها

حياتك - رأس البر - طفل مجدد

سقته ثدى الخالدات جناها

فلا تحرمينا رشفة الخلد كلما

فنينا ، وكم تغنى الجسوم نهاها

بحسبى من أبناء آدم إن صفا

لنا العيش يوما ، أن تكف أذاها[٦]

وفى هذه القصيدة يتحدث عباس محمود العقاد رائد جماعة الديوان عن مدينة رأس البر التى تطل على نهر النيل ويصف مناظرها الجميلة ولياليها الساحرة .

وقد لعب نهر النيل بعصاه السحرية فى الأعمال الأدبية للشاعر فنظم فيه كثيرا من القصائد الغنائية كما نظم فى البحر بعض القصائد .

وقد نظم العقاد مقطوعة شعرية أخرى فى رأس البر بعنوان «شرفة مصر فى رأس البر»[٧] .

---

(٦) عباس محمود العقاد : خمسة دواوين للعقاد ، القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ص ٦٤ .

(٧) المرجع السابق ص ٦٥ .

وفى هذه المقطوعة تحدث الشاعر عن موقع هذه المدينة التى تعد مصيفا محببا إلى نفوس الناس حيث يقضون فيها فصل الصيف ويستمتعون بجوها اللطيف فلا يشعرون بحرارة الصيف .

ومع النيل والبحر والليل نجد العقاد ينظم القصائد الغنائية فى فصول السنة .

يقول فى مقطوعة «خبر الربيع» :

يأيهـا الورق المخضر فى شجر
عهدى وما فيه من ذى خضرة أثر
من أين أقبلت ؟ بل من أين أقبل فى
عيدانك العوج ذاك العطر والزهر
إنا سألنا ، ولو عاد السؤال إلى
فحوى الضمائر لم تعرفه ياشجر
سلنا بحقك من أين استجد لنا
هذا السرور الذى فى القلب ينتشر
كلاهما طارق طاف الربيع به
على براق من الأنوار ينحدر
سله فإن لم يجب فانعم بمقدمه
وافرح به ، وانتظره حين ينتظر
إذا أجاب بأزهار مفتحة
وبالسرور ، فحسبى ذلك الخبر[٨]

(٨) ذاته ص ٦٥ .

فى هذه المقطوعة الشعرية يتحدث الشاعر عن فصل الربيع وهو الموسم الذى تعود فيه الحياة إلى الأشجار ، وينعم فيه الإنسان بعطر الزهور .

ونقول ، لقد كانت الطبيعة عند أصحاب الرومانسية الأوروبية ومن تأثروا بهم من شعراء جماعتى الديوان وأبولو تعكس مشاعر الشعراء وتعبر عما فى نفوسهم من عواطف وخلجات ، وتكشف عن أفراحهم وأحزانهم ، وتسعد لسعادتهم وتشقى لشقائهم ، فكانوا أبناء لها أو بالأحرى كانت الطبيعة فى أعمالهم الأدبية كالأم الرؤوم تخفف من آلامهم .

وكان الارتباط بالطبيعة وكمال الاتصال بها يطهران نفس الشاعر الرومانسى ويحققان عنده التوازن النفسى .

وعند الشاعر الرومانسى نجد الطبيعة تطهر نفسه ، وتغسل قلبه وتنظفه من الدرن ، وللطبيعة عند الرومانسى ألفة تفوق كل ألفة . وجمال يفوق كل جمال . فلا غرابة أن وجدناه يتفاعل معها ويعتبرها كائنا حيا .

والطبيعة معشوقة الرومانسى ، يرتمى بين أحضانها ليجد الراحة والسعادة ، وأحيانا تضمد جراح قلبه[٩] .

ومع التشاؤم والطبيعة وجدنا شعراء جماعتى الديوان وأبولو الذين تأثروا بالرومانسية الغربية ينظمون شعرا فى المرأة يصفون فيه أعضاء جسدها وصفا غريزيا حسيا .

يقول إبراهيم ناجى فى قصيدة له بعنوان (راقصة) :

عجبا لعارية كسا ... ها الفن حسنا رائعا

سمراء وشتها بنا ... نته بياضا ناصعا

شبه الفرائد قد كسين ... من فى الغمام براقعا

---

(٩) ارجع إلى كتابنا : الاتجاهات الرومانسية فى شعر حسن كامل الصيرفى ، الإسكندرية . دار المعارف ١٩٨٥ ص ١١٤ - ١١٥ .

خبأن نصفا فى الدجى وجلون نصفا لامعا
من أى وديان الظبا ء ملاعبا ومرتعا ؟
من عبقر ، ومن الألـ ـب ، ومن فنونهما معا
تبدين ريان الثدى لنا وخصرا جائعا
وترين كونا يشبه الـ ـكون الرحيب الواسعا
متغاير الابداع مخـ ـتلف المحاسن جامعا
لك خفة الطير المحـ ـلق طائرا أو واقعا
لك خفة البطل المجـ ـلى مقبلا أو راجعا
متمهلا للخصم حيـ ـنا للقاء مسارعا(١٠)

أنت واجد شاعر أبولو إبراهيم ناجى فى هذه القصيدة وقد راح يصف الراقصة وصفا عاريا ، وتحدث عن ثديها وخصرها .

هذه الصور العارية يرسمها محمود حسن إسماعيل . وهو الآخر من شعراء جماعة أبولو ـ فى قصيدة له بعنوان «عارية ستانلى» ويقول فيها:

من علم البحر لجاج الهوى وأترع الحب بشطآنه ؟
وقال للموجة : خمر الصبا صاف،فعبى الكأس من حانه؟
وأنشدى فى الشط أغنية أودعها الناى بألحانه ! ؟
حورية صورها ساحر من روعة السحر وسلطانه
لو شامها قس بمحرابه يذوب الروح لقربانه ؟
لأحرق القلب بخورا لها وأشعل النار بصلبانه !
عريانة قدت مسوح الصبا من بهجة الفجر وألوانه
لم ترض بالديباج سترا لها مهفهف الطرف بقمصانه

(١٠) إبراهيم ناجى : ديوان ابراهيم ناجى ، بيروت ، دار العودة ١٩٨٠ ص ١٥٦ .

فهلهلت أسدالها فى الضحى ورفرفت طيرا ببستانه
أندى على الأرواح من نسمة فيحاء يذكيها بريحانه !
سارت إلى البحر وفى هولها ما يضرم النار بقيعانه
ظمآى لظمآن هفت مثلما يهفو حشا الطير لغدرانه
يا فتنة رفت على فتنة كالعرف إذ رف بعيدانه
سلبت رشد البحر حتى غوى وأذهل العقل بطغيانه
هذا الذى جردته للسنا يميس كالزهر بأفنانه ،
فضيحة الحسن أتيحت لنا من شطط الغرب وكفرانه
جسم لو أن الروح ألقت له زمامها ـ فر لأكفانه
خزيان مزقت نقاب الحيا من كل مستور بجثمانه
يرعشه الخزى إذا ما انبرى فى لهوه العارى وتفنانه
فيحسب الناظر من فتنة كهربة تجرى بسيقانه !

. . .

يا بدعة الشط سلبت الهدى من كل معصوم بإيمانه ،
لولا جلال الفن فى بهرة للحسن أصلتنى بنيرانه ،
الهبت فى شعرى سعير اللظى ورحت أصليك بأوزانه
أو الهم البحر مساس الحجا لأغرق البر بطوفانه
ولم يدع فى غمره سابحا يصافح الموج بشطآنه !![11]

---

(١١) محمود حسن اسماعيل : هكذا أغنى ، القاهرة . دار المعارف ١٩٨١ ص ٨١ ومابعدها .

وللإنصاف لشعراء جماعة أبولو ، نقول إنه على الرغم من أن أدبهم معرى ، وأنهم عرضوا فى أعمالهم الأدبية الأجساد العارية فإن رؤيتهم كانت رومانسية غربية تتمثل فى نظرة الاحترام والتقدير إلى المرأة ، وهو ما صرح به رائد الجماعة أحمد زكى أبوشادى الذى زعم بأن أعمالهم الأدبية لم تكن من أجل الغريزة أو لذات الشهوة والجنس . وأن نظرتهم إلى المرأة كانت نظرة مقدسة(١٢) .

هذه النظرة الذاتية المقدسة التى كان ينظر بها أصحاب الرومانسية إلى المرأة وانعكس أثرها على شعراء جماعة أبولو نجدها فى قصيدة حسن كامل الصيرفى «دمعة الحسناء» التى يقول فيها(١٣) :

دموعـــك أغلـــى مـــن الأمنيـــات
فصونـــى دموعـــك ياغاليـــه !
ولا تحزنـــى للغيـــوم الثقـــال
تمـــر بأجوائـــك الصافيـــه
ولا تحســـبى ظلمـــات الحيـــا
ة تمتـــد أمواجهـــا الطاغيـــه
فشمســـك تحـــلم فـــى خدرهـــا
ببهجـــة غدوتهـــا الصاحيـــه
ستنفـــض عنهـــا خمـــول الدجـــى
وتنهـــض سافـــرة لاهيـــه
وترســـل فـــوق عـــراء الوجـــود
خيـــوط أشعتهـــا كاسيـــه

(١٢) مجلة أبولو العدد التاسع ١٩٣٤ .
(١٣) لم نتحدث عن هذه القصيدة فى كتابنا «الاتجاهات الرومانسية فى شعر حسن كامل الصيرفى» .

وتوقـظ مـن غمـرات السكـون
أمانيـــك الحلـــوة الغافيـــه
وتختـال فـى موكـب مـن ضيـاء
يبـــدد أشجانـــك الداجيـــه
صباحـــك ينبوعـــه القدســى
يفيـض علـى روحـى العافيـه
فكيـــف تظنـــين أن الظـــلام
ستخلـد رايتـــه الساجيـــه
يـد الفجـر تعقـل ماترهبـين
وتطلـق أطيارهـــا الشاديـه
وتمســح أعيننـــا الدامعـــات
وتشـــفى جراحتنـــا الداميـه
رأيتـك تبكـين فـى غشيـة
مـن اليـأس موحشـة قاسيـه
كأنـــك زنبقـــة فـى الدجـى
تقطـــر أنداؤهـــا الباكيـــه
فأحسـت كـف الظـلام العتيـ
ـة تطفـىء أحلامـى الزاهيـه
وأحسـت أناتـك الشـاردات
ترجعهـا نسمـــة حانيـــه
تمـزق ستر الدجـى والسكـون
وتقلـق أنجمـــه الراعيـــه

وتبعث فى خفقات القلوب

كوامن أشجانها الماضيه

فذودى عن النفس أشجانها

تعيدى ابتسامتك الشافيه

وإن عبست فى السماء الغيوم

فضنى بأدمعك الغاليه

فما قطرات دموع الحسان

سوى سبحة الخالق الساميه

إذا فرطت حبة من عراها

تدك لها الأجبل الراسيه

وتغلق أبواب فردوسه

وتنضب أنهارها الجاريه

وتسكت أطيارها الصادحات

وتخفت أصداؤها الساريه[١٤] !

أنت واجد شاعر أبولو حسن كامل الصيرفى فى أبيات هذه القصيدة ينظر إلى المرأة نظرة مقدسة فكانت رؤيته الذاتية إليها رؤية معنوية .

ونرى أن شأن شعراء جماعة أبولو كشأن شعراء الرومانسية الغربية الذين تقربوا إلى المرأة فرارا من واقعهم المؤلم الذى كانوا يعيشون فيه .

---

(١٤) حسن كامل الصيرفى : صدى ونور ودموع ، القاهرة . الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٠ ص ٣٥ ومابعدها .

وهكذا ، نجد الفلسفات الأوروبية الذاتية «المثالية» فى الجمال ، وذاتية الشاعر الفرنسى «بودلير» وآراء أصحاب الرومانسية الأوروبية قد أثرت فى هؤلاء الشعراء الغنائيين من المصريين الذين عرضنا لقصائدهم الغنائية فى هذا الفصل ، فنظموا القصائد الغنائية فى التشاؤم الذى كان من أسبابه ما كان يعانيه الشعراء من ظلم الاحتلال الانجليزى فى ذلك الوقت وافتقادهم تقدير الناس لفنهم . ولهذا وجدناهم يرتمون بين أحضان الطبيعة والمرأة لتخففا عنهم الآلام والأحزان ولذلك راحوا ينظمون القصائد فيهما . «الطبيعة والمرأة» .

ثانيا ـ القصة

وهذه الذاتية نراها وقد تجسدت عند بعض كتاب القصة بنوعيها ـ الطويلة والقصيرة ـ واتخذ هؤلاء الأدباء من الجنس موضوعات لأعمالهم الأدبيـة .

ونحن لا ننكر الحب عاطفة إنسانية صادقة تثير فينا السعادة والبهجة ، ولكن ما نأخذه على هؤلاء الكتاب ـ وعلى رأسهم إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعى ـ أنهم فى أعمالهم الأدبية لوثوا هذه العاطفة الرقيقة الصادقة بالطين ، فكان أدبهم أدبا جنسيا يثير الغرائز والشهوات .

وأنت واجد هذا فى القصة الطويلة «الوسادة الخالية» لإحسان عبدالقدوس ، حيث جعل الكاتب لقاءات بطلى الرواية «صلاح» و«سميحة» لقاءات آثمة ، وكان الشيطان الشرير ثالثهما .

«وكان كلما التقيا انتهيا إلى موضع قريب فى صحراء مصر الجديدة ، جلسا فيه ليستمرا فيما بينهما من حديث .. وقد اتخذا من هذا الموضع عشا لهما ، لا يرضيان بغيره ، ولا يستريحان إلا فيه ولا تحلو لهما النجوى إلا فوق رماله ..

«ثم حدث فى لحظة من هذه اللحظات التى تطفو بين سطور الحياة دون أن تسبقها مقدمات ـ وبينما هما جالسان فى موضعهما فوق الرمال ـ أن سكت بينهما الحديث فجأة ، وعبثا حاولا أن يستردداه ، إنما تعلقت عينا كل منهما بالآخر فى صمت خافق ، وكان حبهما قد شب على الحديث ، وأصبح عليهما أن يفطماه !!

«وطال بينهما الصمت الخافق ..

«وعرف كل منهما المصير ..

«وارتجفت شفتاه كأنهما شفتا مذنب تائب يسعى إلى المعبد لأول مرة ، ويخشى ألا تقبل توبته .

«وتزاحمت الدماء فى وجنتيها كأن كل قطرة منها تزاحم الأخرى فى الموكب المثير لتلمس شفتى المذنب التائب .

«وأرخت أهدابها فوق عينيها .. ثم أحنت رأسها وتشاغلت تعبث فى الرمال كأنا تبحث بينها عن مكان تختفى فيه من هذا الصمت .

«ومد يدا مترددة ومسح بها فوق شعرها فى رفق ، ثم قرب وجهه الملتهب إلى وجهها الملتهب .. فرفعت عينيها كأنها تستغيث من النار ، فالتقت بشفتيه تنظر إليها فى تضرع ..

«وتعلقت عيناها المستغيثتان بالشفتين المتضرعتين ، كأنها لا تدرى كيف تفر منهما .. ففرت إليهما !! ..

«ولمس شفتيها أو كاد ، وكأنه يخشى عليهما من شفتيه اللتين طالما شربتا فى نهم من أفواه النساء الرخيصات .. وكأن هذه اللمسة الخفيفة قد طهرت شفتيه فأحس لها برجفة تسرى فى بدنه كله ، وكأن يد الله قد مسته وأمرته أن يكون ملاكا .. فكان !! ..

«وأحست هى للمسة شفتيه بشبه دوار .. كانت القبلة الأولى فى حياتها ، وكأن فى صدرها هاتف يتساءل : هل هذه هى القبلة ؟!

«وربما اعتقدت أن القبلة شىء أكثر من هذا الدوار اللذيذ الذى تحس به ، وأكثر من هذه الضربات الراقصة التى يضرب بها قلبها ، وأكثر من هذه النشوة الهادئة التى أنعشت أعصابها .. فظلت مغمضة العينين ، مزمومة الشفتين ، إلى أن شعرت بأنفاسه تقترب منها مرة ثانية . وشفتيه تلمسان شفتيها ، ولكنها لم تكن هذه المرة مجرد لمسة .. فكانت لحنا كاملا تعزفه الشفاه !! ..

«وانتهى اللحن !! ..

«ونظر إليها كما نظر إليها لأول مرة .. كان كل شيء فيها يتنهد برقة وضعف .. عيناها الواسعتان تتنهدان ، وشفتاها المكتنزتان تتنهدان، ووجنتاها العاليتان تتنهدان ، حتى يداها الصغيرتان تتنهدان .. ولم ينظر إلى صدرها البكر ليرى أنه لم يكن يتنهد .. كان يلهث !! ..

«والتقط يدها الصغيرة فى كفه الكبيرة ، وقال فى كلمات منكسرة وكأن شفتيه نسيتا الكلام ولم تعودا تصلحان إلا للقبل ! .

« ـ سميحة ..

«ولبت فى صوت خجول :

«نعـم ..

« ـ أنت خلاص بقيتى بتاعتى .. بقينا لبعض .. مش ممكن نفترق ولاحد يفرقنا .. حانفضل لبعض على طول ..

«ولف ذراعيه حولها ليضمها إلى صدره ورفعت عينيها إليه فرأت شفتيه من جديد ، فدفعته فى رفق قائلة فى صوتها الهامس الخجول :

« ـ بس ياصلاح كفايه بأه !! ..

«قال وذراعاه لا تزالان حولها :

« ـ عمر ماحيكون كفايه .. و ..»[١٥]

هذه الصور التى تثير النزعات المكبوتة نجدها فى قصة طويلة أخرى لإحسان عبدالقدوس بعنوان «أنا حرة» .

وعلى الرغم أن الطبعة التى بين أيدينا لهذه الرواية قد حذفت منها الرقابة بعض السطور فإن الكاتب فيها جعل أبطال عمله الأدبى يتميزون بالقيم المادية ..

---

(١٥) إحسان عبدالقدوس : الوسادة الخالية ، القاهرة . مكتبة مصر ص ٢٢ وما بعدها .

وفى هذه القصة وجدنا «أمينه» بطلة الرواية وقد قبلت دعوة صديقتها اليهودية «فورتينيه» لتخرج معها إلى نزهة فى سيارة وبرفقتهما شابان أحدهما عشيق الفتاة اليهودية .

وقبلت أمينة الدعوة ، وجلست فى المقعد الأمامى بجانب صاحب السيارة ، بينما جلست «فورتينية» مع عشيقها فى المقعد الخلفى .

وفى الصحراء الخاوية ، راح الجميع يقضون وقتا مع العبث والعربدة وزين لهم الشيطان أعمالهم فوقعوا فى الخطيئة .

«إن الشاب لايزال صامتا ينظر إليها وابتسامته العابثة فوق شفتيه وذراعه لاتزال فوق حافة مسند المقعد تكاد تسقط فوق كتفيها .

«وحاولت محاولة سلمية أخيرة فقالت :

« ـ تعال نمشى على رجلينا شويه ..

«ولدهشتها وافق الشاب وقال :

« ـ تعـــالى !

«وفتح باب السيارة ونزل ..

«ونزلـــت .

«وسارا فوق الرمال يتحادثان حديثا متقطعا ، دون أن يحاول الشاب شيئا ثم عاد إلى السيارة وارتكنا على مؤخرتها ..

«واقترب منها الشاب ..

«ثم رفع ذراعه ..

«وفى هذه المرة أسقطها فوق كتفيها ..

«وأحست بوجهه يقترب منها .. وعادت إليها جميع صور الهجوم والدفاع التى تخيلتها ..

«ثم أحست بشفتيه تلمسان وجنتها ، فلم تتحرك ، إنما شعرت بوجنتها باردة كقطعة الثلج تذوب فى قطرات من العرق ..

«وابتعد الشاب بشفتيه كأنه اقشعر من هذه البرودة ، ثم عاد بهما ، وقبل أن يصل إلى وجنتها مرة ثانية ابتعدت عنه وقالت له فى لهجة حاسمة :

«أرجوك لازم أرجع البيت دلوقت ..

«ولم يجادلها الشاب ، وعاد إلى السيارة ، ونظر الشاب إلى الفتى والفتاة اللذين بداخلها ، وقهقه ضاحكا وهو يصيح :

«ياجماعة خليكو معانا شويه ا .»[١٦]

وهكذا ، راحت أمينة تلهو وتعبث مع شاب غريب لاتربطه بها علاقة.

وحصلت أمينة على البكالوريا (الثانوية العامة) والتحقت بالجامعة، ووجدنا الطلبة يندفعون نحوها ، كل منهم يطلب ودها وحبها ، وإن كانوا فى الحقيقة يريدون التقرب إلى جسدها ، وبلغ عدد هؤلاء المتنافسين عشرة شبان ، لكنها اتجهت إلى طالب آخر لم يكن أحد العشرة الذين أثارتهم بفتنتها.

وشاركها «جلال» المشاعر والأحاسيس ، ولازم كل منهما الآخر ملازمة الظل ، فكانا يجلسان بجانب بعضهما فى قاعة المحاضرات ، ويتناولان سويا الطعام ، ويغادران الجامعة معا ويوصلها إلى دارها بسيارته .

«إلى أن كان المساء ، وكانا مدعوين إلى حفلة راقصة فى بيت أحد الزملاء .

---

(١٦) إحسان عبدالقدوس : أنا حرة ، القاهرة ، مكتبة مصر ص ٧٨ ـ ٧٩ .

«وتعمدت أمينة ألا ترقص (السوينج) أو (البوجى ووجى) ثم قامت ترقص معه (روميا) بطيئة هادئة يسرى لحنها ناعما حنونا كأنه خفقات قلب ، ويرتفع معه صوت امرأة تغنى وكأنها تتأوه قائلة :

« (إذا كنت تحبنى .. قل لى ..)

« (وإن كنت ياحبيبى .. اعترف)

« (ولكن لا تقل لى .. ربما ؟!)

«وانساقت أمينة بخيالها مع اللحن الهادىء الناعم ، وكانت قد تعودت أن تتكلم وتضحك عندما ترقص . وأن تصرف اهتمامها كله إلى خطوات قدميها ، ولكنها فى هذه الليلة لم تتكلم ولم تضحك ولم تحس بخطوات قدميها ، إنما ألقت بجسدها فوق جسده وتركت خصلات شعرها تدغدغ وجهه وتملأ أنفه بعبير أنوثتها ، ثم أحست بوجنته تلامس وجنتها وقد دبت فيها النار ، وأحست بأنفاسه تتهدج ثم تتسلل إلى أنفها .. ساخنة لافحة كأنه ينفخ فى لهب ، وأحست بساقيه ترتبكان حتى لم تعودا تصاحبان اللحن ، وكادتا تتوقفان عن الرقص ، ثم أحست بذراعه تضغطها إلى صدره وتقسو عليها وكأنه يريد أن يخفيها فى ثيابه ويفر بها ، ثم أحست بكفة تتحرك فوق ظهرها وتردد بين كتفيها كف أعمى يبحث عن باب الدخول»(١٧) .

ومن العجيب الغريب أن نجد أمينة وقد راحت تعربد وتعبث مع جلال باسم الصداقة والزمالة ، وسارا معا فى طريق المنكر والفحشاء ، ونراهما يرتكبان هذه الآثام أمام أسماع الزملاء والزميلات من طلبة وطالبات الجامعة وتحت أبصارهم .

وعقب تخرجهما من الجامعة ـ جلال وأمينة ـ وحصولهما على شهادة إتمام الدراسة الجامعية ، انفصل كل منهما عن الآخر ، وسار كل واحد فى طريق ، وخرج جلال من حياتها ، وخرجت من حياته .

---

(١٧) المرجع السابق ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

وبرغم حصول أمينة على الشهادة العالية فإن هذه الدراسة الجامعية لم تؤثر تأثيرا طيبا فى سلوكها ولم تترك انعكاسا ممتازا على شخصيتها ورأيناها بعد تخرجها من الجامعة تسير فى طريق الوحل الذى كانت تسير فيه من قبل فوجدناها وقد اندفعت بجسدها نحو شاب ثالث هو (عباس).

«ولم تسمع كلمة واحدة مما يقول ، وانحصرت كل حواسها فى أصابعه المنغرسة فى كتفيها .. كانت أصابع قاسية قوية تؤلمها قسوتها وقوتها ، وقد أحبت هذا الألم واستسلمت له ، وأحست وهو يهزها بعنف كأنه ينفض غبارا من فوق جسدها لتبرق من تحته ومضات حية ، تزداد بريقا وحياة كلما ازداد عنفا ، وكلما أحست بجسدها يلامس جسده فى هذه اللمسات السريعة الخاطفة .

«وألقت رأسها إلى الوراء ، وهو لايزال ممسكا بها بيديه ، وكأنها لم تعد فى حاجة إلى هذا الرأس ، بينما أغمضت عينيها كأنها لا تريد أن ترى إلا أحلامها ..

«وفجأة كف عن صراخه ، وتوقفت ذراعاه عن هزها وبرقت عيناه كأنه تنبه إلى أنها بين يديه لأول مرة ، ونظر إليها .. إلى شفتيها المستسلمتين وكادتا من فرط استسلامها تسقطان تحت قدميه .

«ومضت برهة وهو يطوف بعينيه فوق وجهها ولا يكاد يتبين خطوطه وكأنه أفاق من ثورته على شىء أجمل من الثورة .

«ولم تفتح عينيها إليه .. إنها لا تريد أن ترى .. تريد أن تحس وتنتظر أن تحس شيئا ..

«وأحست بنفسها فوق صدره ، وبذراعيه القويتين تحيطان بها وتضغطان عليها فى عنف ، وكأنه يريد أن يخفيها فى ضلوعه .

«ثم أحست بشفتيها تختفيان فى شفتيه وترقدان فى غفوة لذيذة وتتنفسان بينهما فى هدوء مريح ، كأنهما وجدتا مقرهما بعد أن تاهتا عنه العمر كله ..

«ولم تع شيئا ولم يكن رأسها موجودا فوق كتفيها لتعى به .. إنما أحست بقلبها ينخلع من صدرها ويسحب روحها معه ليلحقا بشفتيها ، ويعيش الجميع .. القلب والروح والشفتان .. بين شفتيه ..

«ولم تدر متى رفع شفتيه عن شفتيها ، ولكنه عندما رفعهما أسندت رأسها إلى كتفه وهى لاتزال مغمضة العينين ، كأنها لا تريد أن تصحو من أحلى أحلامها ..

«ومد كفه يمسح بها فوق شعرها بينما مال برأسه يسنده فوق رأسها، وسكت ليترك قلبه يدق بجانب قلبها وكل منهما يروى للآخر قصة حب ..

«وسكتا طويلا ..

«ثم رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين تكاد فرحتهما تغطى على أبصارهما ..»(١٨) .

وراح عباس وأمينة يرتكبان هذه الآثام باسم الحب والحب منهما برىء ، ولم يفكرا فى الزواج .

ونجد أمينة تصنع كل هذا باسم الحرية ، ومثل هذه الحرية التى تتعدى الحدود وتصل إلى الفحشاء ننكرها ونلفظها .

وقد يزعم الكاتب أن بطلته ارتكبت هذه الآثام نتاج الظروف العائلية التى مرت بها ، حيث انفصل والدها عن أمها وتزوج كل منهما وجعلها أبوها تعيش مع عمتها وزوجها الذى كان يعاملها بقسوة وشدة .

ونرفض هذا الزعم ، ولا نظن أن مثل هذه الظروف تؤدى إلى مثل هذا التحرر والإنحلال .

هذا الإسراف فى الشر والعبث والعربدة نجده فى رواية الكاتب «لا أنام» ، وعلى الرغم أن الرقابة قد حذفت من طبعتها هى الأخرى بعض

---

(١٨) المرجع السابق ص ١٩٣ - ١٩٤ .

السطور ، فإن إحسان عبدالقدوس قد وصل ببعض شخصياتها إلى درجات الحيوانية ، ووجدنا بطلة القصة «نادية» التى بلغت من العمر الثامنة عشر عاما تعربد وتعبث مع مصطفى الذى بلغ السادسة والثلاثين من عمره .

«وجئت ووقفت بجانبه ، ووضعت يدى على كتفه ـ وكان قد خلع سترته ـ وانحنيت برأسى داخل البيك آب متظاهرة بأنى أقرأ عنوان الاسطوانة ، ثم أدرت رأسى إليه حتى كادت شفتاى تلتصقان بشفتيه وقلت وأنا أتحداه بعينـى :

« ـ الاسطوانة دى تعجبنى قوى ! !

«ولم يرد على .. إنما نظر إلى طويلا .. ورأيت فى عينيه شيئا جديدا مثيرا .. رأيته قد قرر أمرا قد طال أمد تفكيره فيه ، وأحسست بأنفاسه أسرع مما تعودتها .. ولمحت حمرة خفيفة تصبغ وجهه الأسمر .. وقال فى صوت لم أسمعه من قبل ، وكأنه من أعماقه :

« ـ أنت خلاص أعفيتينى من وعدى ؟ !

«قلت وشفتاى لاتزالان قريبتين من شفتيه ، وصوتى يكاد يصبح همسـا :

« ـ وعد إيه ؟ ..

« ـ مش فاكره انى وعدتك قبل ماتيجى الشقة أول مره .. إنى ..

« وقاطعتـه :

« ـ لا .. مش فاكره ! !

«وطافت بشفتيه ابتسامة ، اختفت سريعا .. ثم شعرت بوجهه يقترب من وجهى ، ثم بخده ينام على خدى .. ثم بشفتيه تزحفان فى رقة دافئة وتضمان شفتى ..

«لقد قبلنى أخيرا ! !

«ولم أحس إلا بفرحتى بالقبلة الأولى .. القبلة التى انتظرتها كل هذه الأسابيع ..

«ثم ألقى الاسطوانة التى كانت لاتزال بيده وضمنى إلى صدره .. ثم ارتفعت يده ودست أصابعها فى طيات شعرى ، بينما ذراعه الأخرى لا تزال تضمنى فى قسوة تمنيت أن تكون أقسى .. ثم انحنى يقبل عنقى .. عشرات القبل !!

«ورفع رأسه ونظر إلى وأنا لازلت بين ذراعيه ، وقال فى صوت مرتعش مبهور :

« ـ أنا قاومت كثيرا يا نادية .. أنا

«ولم يتم حديثه إنما نظر إلى قميصه فرأى آثار أحمر شفتى .. فابتسم ابتسامة كبيرة .. ثم فك أزرار القميص وشده من تحت سرواله ، ثم خلعه وألقاه على الأرض .

«ورأيت صدرا عاريا .. صدرا فى لون البفتيك المشوى نصف شـــواء ! ! ..

«وكنت قد رأيت صدورا عارية لرجال كثيرين على شاطىء البحر .. وكنت قد رأيت صدر مصطفى نفسه عاريا .. ولم أشعر أبدا أن الصدر العارى يمكن أن يثير فى كل هذه الأحاسيس التى ثارت فى نفسى فى ذلك اليوم .. أحسست كأن صهدا لافحا ينبعث من صدره .. أحسست كأن قوة كبيرة تبعث من هذا الصدر العارى وتشدنى إليه .

«وارتبكت .. وكأنى ضعفت .. وكأن كل شىء يتخلى عنى .. وكأنى لم أعد أستطيع الوقوف على قدمى .. وكأن نارا تندلع فى أعصابى وتصهرنى ثم تذيبنى ..

«ولم أعد أستطيع أن أنظر إليه أو إلى صدره العارى ..

«وقال فى صوت منقطع خشن وكأنه يعتذر :

« ـ أنا آسف .. كان لازم أقلع القميص علشان مااضطرش أغسله قبل ما انزل ..

«ولم أرد عليه ..

«وسكت طويلا ، وأنا أشعر بعينيه تطوفان فوق وجهى .. ثم مد ذراعيه وضمنى إليه ، وضغط رأسى فوق صدره العارى .. وأحسست بشفتى تحتضنان قطعة من صدره .. قطعة من لحمه !!»[١٩] .

وكثيرا ما تكررت هذه اللقاءات الآثمة فى منزل مصطفى ، ولم يشعرا بالخطيئة ، وكانت هذه العربدة تجرى فى حياتهما سهلة وبسيطة .

وراحت نادية تشرب الخمر وأدمنت فيه مع عشيقها ، ووصلت العلاقة الجنسية بينهما إلى حد أصبحا كالزوجين ، تصنع معه كما تصنع الزوجة مع زوجها ، ويفعلان كل هذا بلا حرج أو حياء .

وكيف يشعران بالحرج والحياء وكان الشيطان لهما قرينا وراح يحرضهما على ارتكاب المنكر ويدفعهما إلى الهاوية .

«وانتهيت من كأسى ..

«ولم تكن المرة الأولى التى أشرب فيها كأسا .. كنت قد شربت عدة كئوس فى عدة مناسبات ، وكنت قد شربت كئوسا أخرى مع مصطفى .. ولم يكن مصطفى يقدم لى الكأس ليسكرنى ، لم يلح على أبدا فى أن أشرب أكثر مما أريد ، وفعلا لم أسكر أبدا فى حياتى .. لم يكن الويسكى يؤثر فى ، ولكنى أحسست لهذه الكأس بنشوة لم أحسها من قبـــل ! ..

«وجذبنى مصطفى من يدى مرة ثانية ، ودخلنا إلى الحجرة الأخرى التى كنت أسميها حجرة المكتبة .. وكان ضوؤها أصفر خافتا ينبعث من (أباجور) كبير منزو فى ركن بعيد .

---

(١٩) إحسان عبدالقدوس : لا أنام ، القاهرة . مكتبة مصر ص ١١٠ ومابعدها .

«وبدأ مصطفى يعلق بعض الاسطوانات من (البيك آب) .. ثم التفت إلى ، ولفنى بنظرات عينيه .. نظرات مبهورة ساخنة .

«وقال على أنغام أول اسطوانة :

« ـ تعرفى أنا نفسى فى إيه دلوقت ؟ .. نفسى أخرج بيكى فى الشارع وأمشى قدام الناس وأقول لهم : دى بتاعتى .. كل الجمال ده بتاعى .. عنيكى بتوعى .. وشفايفك بتوعى .. وشعرك بتاعى .. كل حته فيك بتاعتى أنا .. تعرفى أحلى حاجة فيك إيه ؟ ..

«قلت وأنا أزهو بنفسى وجمالى :

« ـ إيـــه ؟ ..

«قال كأنه يغيظنى :

« ـ أنا .. حبى ! !

«قلت كأنى أصد غروره بنفسه :

« ـ أبدا كل الناس بتقول إن أحلى حاجة فيه .. لون عينيه ! !

«قال وهو يضحك :

« ـ لو ماكنتيش بتحبينى ماكانش لون عنيكى بأه حلو كده .. كانت بقت عنيكى دبلانه .. وخدودك نايمه على شفايفك .. وشفايفك نايمه على دقنك .. قولى يانادية .. قولى إن أحلى حاجة فيك هيه حبى ! !

«ولم أقل شيئا .. وإنما ارتميت فوق صدره ، وتركته يسمع حبى مع دقات قلبى ..

«كنت أصدقه وأصدق كل شيء وأنا معه ! ! .

«ورقصنا على أنغام الاسطوانة الثانية .. ثم بدأت خطواتنا تتثاقل حتى توقفنا عن الرقص ، وشفتاى بين شفتيه وأنفاسه تلسع وجهى ، وذراعاه تضغطانى بقسوة ! !

«ولم أحس وأنا هائمة فى قبلته بأصابع مصطفى وهى تبحث عن (مسنة) ثوبى وتشدها لتخلع الثوب عنى ! ! ..

«ولم تكن المرة الأولى التى أخلع فيها ثوبى أمام مصطفى .. كانت الطبيعة خلال الشهور الطويلة التى عرفته فيها قد أعطته منى ما أراد ، وأعطتنى منه ما أردت .. ولكنى فى هذه المرة أمسكت بأصابعه التى تخلع ثوبى .. وقلت فى حزم مبتسم :

« ـ لا .

«ونظر إلى مصطفى دهشا كأنى أزعجته فى أحلامه واستطردت قائلة :

« ـ دور وشك

«ولم يفهم مصطفى .. وظل ينظر إلى دهشا . وقلت وأنا أدير ظهره إلى بيدى :

« ـ دور وشك .. وماتبصش إلا لما أقول لك

«وابتسم مصطفى .. وخطا عدة خطوات إلى آخر الغرفة بجانب (الأباجور) وأدار وجهه ، وانتظر ..

«وخطوت أنا إلى ركن الغرفة المقابل ، وفتحت حقيبتى .. وأخرجت منها قميص النوم الحريرى الأبيض ، وخلعت ثوبى بيدى .. وأنا أقول له بين الحين والآخر :

«إوعى تبص ! ! ..

«ثم لبست قميص النوم ..

«وقلت بصوت هامس خجل ، كأنى أقابل مصطفى لأول مرة :

« ـ بص بأه ! ! ..

«والتفت إلى ونظر كأنه لا يصدق عينيه ! ! ..

«وأبعدت عينى عن عينيه .. كأنى لا أستطيع أو أواجهه أو لا أستطيع أن أواجه النشوة التى تضطرم بين أضلعى !

«ومد ذراعه وأطفأ (الأباجور) .. لم يبق سوى ضوء خافت ينبعث من الحجرة المجاورة ، يتسلل إلينا مترددا على استحياء ..

«وأحسست به .. بجانبى ..

«وأحسست به يجذبنى إلى الأريكة العريضة ، ثم نقع فوقها كأننا ورقتان خفيفتان يسقطهما الهواء من فوق شجرة إلى الأرض ..

«وأحسست بنفسى بين ذراعيه ! ! ..

«وتمنيت ساعتها أن يكون فى الشقة غرفة النوم ، ليتم بها حلم العروس ..

«وانقضى الليل ونحن الاثنان لا ننام ! !»[٢٠] .

تفعل نادية كل هذا مع مصطفى وهى على دراية بأنه لا يقتنع بالزواج لأن مفهوم الحب عنده يختلف عن مفهوم الزواج .

ومن أجل احتفاظها بعشيقها مصطفى ، راحت ترتكب الكثير من الشرور ، وجعلت تلصق بزوجة أبيها تهمة الخيانة حتى يطلقها ، ورأيناها تحيك الخطط وتدبر المؤامرات ليتسرب الشك إلى قلب والدها .

وتحققت أمنيتها وانفصل والدها عن زوجته وطلقها ، وعانى أبوها كثيرا لأنه كان يثق فى زوجه ، وما كان يظن أنها ستخونه .

ثم يتزوج والدها من صديقتها «كوثر» التى كانت صورة مستوحاة منها ،وكانت هى الأخرى واحدة من هؤلاء اللائى يفرقن بين الحب والزواج.

أعنى أن كوثر كانت على علاقة آثمة بشاب آخر قبل ارتباطها بوالدها واستمرت هذه العلاقة بعد الزواج ولم تنفصل عن عشيقها .

---

(٢٠) المرجع السابق ص ١٢٨ ومابعدها .

والعجيب الغريب أن نجد كوثر تطلب من نادية الزواج من عشيقها «سمير» وتحاول اقناعها بهذا الزواج[٢١] .

وتخضع نادية لأوامر صديقتها وزوجة أبيها وتتزوج عشيقها سمير .

ونقول إنه على الرغم أن والد نادية قد انفصل عن والدتها وهى فى عامها الثانى .

وعلى الرغم أن هذا الطلاق كان نتاج علاقة آثمة بوالدتها مع رجل آخـــر .

وعلى الرغم أنه تزوج امرأة أخرى .

وعلى الرغم أن نادية كانت على دراية تامة بهذه الأحداث ، فلن تشفع لها هذه الأحداث ارتكابها هذه الآثام والشرور .

وهذه الذاتية المفرطة تجسدت فى كثير من قصص يوسف السباعى الطويلة والقصيرة .

وفى روايته «إنى راحلة» يصور رؤيته فى الحب والزواج ، و(عايده) بطلة هذا العمل الأدبى فتاة كانت تعيش مع شقيقها وجدتها ووالدها الذى انفصل عن أمها .

وفى الصفحات الأولى من الرواية يصور الكاتب بطلته وهى فى مستهل حياتها ، وقد جعلها جامدة الإحساس ، متبلدة الشعور ، ونراها تنكر الحب ولا تعترف به ، وأثر والدها تأثيرا كبيرا فى بناء شخصيتها فى هذه المرحلة ، ولعله أراد أن يجعلها تتميز بهذه الطباع والخصال نتاج انفصاله عن أمها .

لكن عايده لم تظل على هذا الإحساس ، واتجهت بجسدها إلى «أحمد» ابن خالتها الذى كانت تعامله من قبل بكبرياء ، وراحت تعربد معه وتلهو .

---

(٢١) ذاتـه ص ٣٦٨ وما بعدها .

«.. ورفعت بصرى إليه فوجدت وجهه يطل على وقد شاعت فيه ابتسامة مشرقة ونظرة حالمة متمنية ملأتنى نشوة ، ومتعة ، وأحسست بيده تمس رأسى فى رفق ، وأصابعه تعبث فى شعرى ، فأصابتنى من مسته ومن نظرته رجفة سرت فى جسدى .

«لم يقل لى : إنى أحبك ، وخيرا فعل .. فكلمة (أحبك) كنت أستثقلها وأعتبرها ممجوجة مبتذلة . وكنت أعتقد أن أبغض ما يفعله محب لكى يعبر عن حبه لمن يحب هو قوله : (أنا أحبك) .

«لم يقل لى (إنى أحبك) ولكن عينيه وشفتيه وأصابعه وكل جارحة فيه ، كانت تنطق صارخة (إنى أحبك) .

«هذه أشياء تحس قبل أن تسمع .. فالمشاعر تسرى من النفس إلى النفس كأنها شعاع مضىء .. إنها ليست فى حاجة إلى أقوال تظهرها .

«أطرقت برأسى وأنا أحس اضطرابا شديدا ، وعاد إلى خوفى القديم من الحب .. وعواقبه ، وصممت على ألا أترك نفسى تنزلق ، وأن أتمالك وأتماسك ، وأن أقاوم كل متعة ، وألا أدع زمام نفسى يفلت منى .

«ورفعت بصرى مرة ثانية ، فوجدته مازال يسلط على من عينيه تلك النظرة الحارة التى تذيب نفسى وتتركنى على وشك الانصهار أو التحلل .

«كيف المقاومة ؟ أأكسو وجهى مظهر الغضب والنفور وآمره بأن يعود إلى مقعده ؟ لا أظنها طريقة مثلى ، لأنه إما أن يغضبه نفورى ، وأنا لا أود إغضابه ، وإما أن يزيده التمنع رغبة ، ولا أظننى لو زادت رغبته قيد أنملة ، أستطيع المقاومة .

«إذا .. ادعى البرود ، وأريه أنى جامدة لا أتأثر .. فيصيبه الفتور والخجل فتخمد عواطفه ، وأكون بذلك قد انتصرت ؟

«لا تضحكوا على ولا تسخروا منى .. فما خدع الإنسان مثل نفسه .. لقد كنت أحاول أن أجد لنفسى فتوى أنال بها ما حرمته عليها وما

أبرع الإنسان فى إيجاد الفتاوى والمبررات وفى اللف والدوران .. لقد كنت أتلهف على ما أجزع منه .. كنت أريد وأخشى .. فحاولت أن أفر من الخطر لأعود إليه من طريق آخر ..

«أجل لقد صممت على أن أبدى له الفتور وقلة الاكتراث ، وأريه أنى متمالكة عواطفى ، وأننى لا أفقد زمامى بسهولة .

«كنت لاشك حمقاء .. ألست إنسانة ؟ ! وعاشقة ؟ !

«لننظر ماذا كانت النتيجة ؟

«نظرت إليه وقلت له بهدوء :

« ـ ثم ماذا ؟ ماذا بعد جلستك هذه ؟

«ولم يجب ، بل انحنى برأسه وهو ينظر إلى نظرته الحنون اللهفى . وأحسست بلهب أنفاسه يلفح وجهى ، وبشفتيه تقتربان من شفتى وتمسهما مسا خفيفا .

«وتمالكت نفسى ، وبقيت كما أنا .. لا أحرك ساكنا ، وكأنى لم أحس به ولا بشفتيه ، وقلت له بمنتهى الهدوء :

« ـ لا فائدة .. إنى مخلوقة جامدة الإحساس ، وباردة المشاعر ، خير لك أن تقبل تمثالا من التماثيل .. فلن تحرك فى من المشاعر أكثر مما تحرك فيه .

«ولم تصبه كلماتى بفتور ، أو تراجع .. أو تطفىء منه الحرارة التى تشع من عينيه ، أو اللهب الذى كان يستعر فى أنفاسه .

«ومن العجب .. أنى لم أحس بخيبة أمل .. رغم أن هذا كان فشلا ذريعا لخطتى التى انتهجتها للمقاومة ، ولكننى ـ كما قلت لكم ـ كنت أخدع نفسى ، وعلم الله ماذا كان يمكن أن أحس به من المرارة لو قد أصابه التراجع والفتور فعلا .

«ظللت أقول له إنى لا أحس ولا أشعر .. وإنى جامدة باردة ، وظل هو يمس بشفتيه شفتى .. حتى أحسست كأن الكلمات أخذت تذوب فى فمى ، وأن صوتى يتلاشى رويدا رويدا .. كأنما قد فقدت قدرتى على النطق ، أو كأنى قد حقنت بمخدر .

«ولم أنبس بكلمة .. بل تثاقل جفناى .. ولم أعد أشعر إلا بشفتيه حارتين على شفتى .. وأنفاسه مختلطة بأنفاسى ، وبلا وعى ، ولا إرادة .. وجدت ذراعى .. ذراعى أنا ـ المخلوقة الباردة التى لا تحس تحيطانه برفق ، ثم تضمانه بكل ما ملكت قواى ، وأغمضت عينى .. ورحت فى نشوة ممتعة .. وحلم جميل .

«وافترقت شفتانا برهة .. كى نتمالك أنفاسنا .. ثم عادت الشفتان إلى لقاء آخر وأعنف .. ومد يده وأخذ يتخلل بأصابعه شعرى .. ويتحسس وجهى فى حنان شديد .

«وانتقلنا إلى الأريكة وجلسنا فى ناحية منها ، وجلست بجواره مسندة رأسى إلى صدره .. وبين لحظة وأخرى تلتقى شفاهنا .. كأننا نهمان صاديان ... لا نشبع من جوع ، ولا نروى من ظمأ»[٣٢] .

وعندما يتقدم أحمد إلى والدها ليطلب خطبتها ، نجده يخيب أمله ، ويرفض طلبه ، لأنه قرر أن يزوجها من «توتو» بك ابن أحد كبار الشخصيات .

وتقبل عايده الزواج من «توتو» بك على مضض حتى لا تغضب والدها ، وكان «توتو» هذا صورة للشاب الذى يقضى كل أوقاته فى اللهو والعربدة والمنكر ، واستمر على هذه الحياة بعد زواجه من البطلة ، وحاول أن يجعلها صورة منه .

وذات يوم عقب الزواج ، رافقته إلى أحد الأندية التى كان يتردد عليها قبل زواجه منها ، وتعددت اللقاءات فى هذا النادى مع أصدقاء «توتو» .

---

(٣٢) يوسف السباعى : إنى راحلة ، القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٨٧ ص ٩٢ ومابعدها .

وكان هذا النادى مكانا للإثم والمنكر ، أو بالأحرى كان منتدى للشياطين ، وفيه كان الأزواج والزوجات يرتكبون الفحشاء ، فرأينا الزوج يخون زوجته مع زوجة صديقه ، ووجدنا الزوجة تخون زوجها مع صديقه وهم يعتبرون هذه الآثام أشياء عادية وطبيعية ولا غرابة فيها(٢٣) .

وكان نتاج اللقاءات فى هذا النادى أن وجدنا سوءاته وقد تركت انعكاساتها على توتو وعايدة ، ورأينا الزوج يقع فى عشق «طمطم» زوجة محمود بك أحد الأصدقاء وراح يعبث معها ويلهو ، ووجدنا عايدة هى الأخرى تعربد مع الزوج محمود بك بعد أن أخبرته بعلاقة طمطم بزوجها .

وتتذكر عايدة ابن خالتها أحمد ـ الذى تزوج هو الآخر ـ وقررت أن تتخلص من هذه الحياة حفاظا على حقوق عشيقها أحمد ـ كما تزعم ـ .

وتذهب عايدة إلى الساقية التى كثيرا ما شهدت لقاءاتها ، وهناك وجدت أحمد الذى ماتت زوجته ، ورأينا الشيطان دلهما بغرور فأوقعهما فى الخطيئة . وراح العاشقان يعيدان الكرة فى الإثم والمجون والعربدة .

كما تجسدت ذاتية (إنى راحلة) فى (الشكل) حيث وجدنا الكاتب فيها وقد اهتم بحلاوة الأسلوب الذى كان يضمنه بأبيات من الشعر .

«وكانت السماء منمقة بسحب الخريف المنشورة فى الأفق المحمرة الحواشى .. الموشاة الأطراف .. إيذانا بمطلع الشمس ، وأوراق الشجر قد كسيت بقطرات الندى المتلألئة المتساقطة إلى الأرض كالدموع الصامتة وأبصال الزنبق تملأ الحديقة .. وأعواده المحملة بالزهور البيضاء تتمايل مع هبات النسيم .. وأوراق الورد الأحمر متناثرة على الطمى .. والداليا تتثاقل زهورها على أغصانها العالية .. وحوض الماء الذى أجلسنى (أحمد) عليه وغسل لى ساقى فيه .. تتساقط من صنبوره قطرات الماء .

---

(٢٣) المرجع السابق ص ٢٠٢ ومابعدها .

«ما أقدر المناظر المعينة .. والأجواء المخصوصة .. على تجسيد الذكريات .. وعلى إثارة الشجن .. رب صوت عابر أو نسمة رطبة ، تعيد إلى نفوسنا حشدا من الأحداث .. وتنقلنا إلى عالم آخر .. رب نقيق ضفدع ، أو زقزقة عصفور ، تنكأ فى نفوسنا جرحا أبل وقرحا شفى .

رب ورقـاء هتـوف فـى الضحـى

ذات شجـو صدحـت فـى فـنن

ذكـرت إلفـا وعهـدا سالفـا

فبكـت حزنـا فهاجـت حزنـى

فبكانـى ربمـا أرقهـا

وبكاهـا ربمـا أرقنـى

ولقـد تبكـى فمـا أنهمهـا

ولقـد أبكـى فمـا تفهمنـى

غيـر أنـى بالجـوى أعرفهـا

وهـى أيضـا بالجـوى تعرفنـى

«لم تكن ورقاء هاتفة .. هى التى حركت شجنى ، وأندت مآقى ، بل كان كل شىء حولى .. السحب المنخفضة ، والنسيم الرطب .. ومدافع الورق ، وأعواد الزنبق .. وأوراق الورد .. وزهور الداليا .. وحوض المياه ..كل هذا تعاون على فذوب نفسى ، وأضرم الحنين فى قلبى»(٢٤).

وهكذا ، جعل الكاتب الجمال فى عمله الأدبى يتمثل فى اللفظ والأسلوب والصورة واللوحة ، وهذا ما كان ينادى به «كانت» و«كروتشيه» فى فلسفة الجمال حيث ركزا اهتمامهما بالصياغة التعبيرية والأسلوب .

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١٨٤ .

وفى قصته القصيرة «امرأة مخدوعة» من المجموعة القصصية «ست نساء وستة رجال» نجد زوجا يخون زوجه مع زوجة قريب له .

«وطرقت الباب طرقة خفيفة فلم يجب أحد .. وجدت أن الباب غير مغلق بالمزلاج ، فدفعته دفعة خفيفة فانفتح ، ودخلت إلى الصالة وأنا فى غمرة من القلق والاضطراب .

«ووقفت فى منتصف الصالة الخالية .. أدير البصر يمينا ويسارا دون أن أجد أحدا .. وزادت فى نفسى الوساوس ، ووجدتنى أندفع بلا إرادة إلى أقرب حجرة إلى فافتح بابها وأدلف منه .

«ولا أظننى أستطيع قط أن أصف لك مبلغ دهشتى وارتياعى وأنا أقف فى الحجرة أحملق فى المنظر الذى رأيت فيها .

«لقد رأيت آخر ما يمكن أن يخطر على بالى .

«رأيت الاثنين وقد ضمهما فراش واحد .

«من يصدق هذا .. ؟

«زوجى الأمين الطيب الوفى .. الذى كان يشمئز من المرأة ، والذى كنت أخشى عليه من أن يقتلها من فرط كرهه لها .. ينهار أمامها بمثل هذه السرعة ؟

«أهكذا تتطاير المبادىء والإخلاص .. فى غمضة عين .. أمام جسد عار وجيفة نتنة .. ؟

«أهكذا الرجال ياسيدى كلهم كالكلاب .. مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم .. لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم فى أقرب كوم للقمامة يلوح لهـــم»[٢٥] .

---

(٢٥) يوسف السباعى : ست نساء وستة رجال ، القاهرة . مكتبة مصر ، ١٩٨٦ ـ امرأة مخدوعة ـ ص ٢٦ ـ ٢٧ .

وذات هذه الأحداث نجدها فى أقصوصة «رجل طيب» التى تصور امرأة تزوجت شابا يعمل مدرسا فى الجامعة بعد أن حصل على درجة الدكتوراه وعاشت معه عيشة طيبة ، وكانا يقضيان وقت الفراغ فى أحد الأندية القريبة من منزلهما .

ثم اتجه زوجها إلى الأعمال الحرة ، واضطره العمل إلى قضاء كثير من ساعات اليوم فى مكتبه وخارج بيته ، مما جعل زوجته تشغل هذا الوقت الذى يقضيه زوجها فى مكتبه فى النادى .

وفى النادى ، تعرفت بزميل لزوجها كان من أبطال رياضة (التنس) وعرض عليها الصديق أن يقوم بمهمة تدريبها هذه اللعبة ، لكنها اعتذرت حفاظا على مشاعر زوجها .

وعندما عرض بطل (التنس) على زميله الأمر وافق وطلب منها أن تقضى وقتها فى النادى مع هذا النوع من الرياضة .

وراح كل من البطل والزوجة يتقرب نحو الآخر عشقا وهياما ، وتقرر الزوجة الانفصال عن زوجها .

وكصنيع الزوجة ، وجدنا الزوج هو الآخر على علاقة بامرأة أخرى .

«وغادرت الدار ذات صباح بعد أن أنبأت زوجها أنها ستقضى اليوم بطوله عند أمها لأن بها وعكة ... وذهبت إلى صاحبها لتنبئه علام استقر رأيها وأيهما ستختار ، هو أو زوجها .

«والتقت به فى داره حيث كان ينتظرها فى لهفة .. فأنبأته أنها قد اختارته هو . وأنها ستنبىء زوجها بصراحة بجلية الأمر وتسأله الطلاق .. وغادرته عائدة إلى دارها .. وطال بها الانتظار دون أن يعود زوجها ، فدفعها القلق إلى الذهاب إلى مكتبه ، وكانت تعلم أية صدمة قاسية توشك أن توقعها به ، ولكنها كانت تعلم أن عملها هذا خير بكثير من الخديعة والخيانة .

«ووصلت إلى المكتب ودقت الجرس ، وبعد لحظة كان زوجها يقف أمامها فى دهشة وذهول .

«كانت أول مرة تزوره فى مكتبه ، وخشى أن يكون قد أصاب أمها مكروه .. فسألها منزعجا :

« ـ أأصاب والدتك شىء ؟ .

« ـ لا

« ـ إذن ما بالك مضطربة هكذا ؟ .

« ـ أريد أن أفضى إليك بشىء .

« ـ الآن ! .

« ـ أجل الآن .

« ـ ألا يمكن تأجيله حتى نعود إلى البيت ؟

« ـ من الأفضل أن ننهيه الآن .

« ـ أهو من الأهمية بمكان ؟

« ـ نعـــم

«وقادها إلى حجرة المكتب وأغلق الباب ومازالت علامات الدهشة مرتسمة على وجهه . ولم تكد تستقر على مقعدها حتى صاح متسائلا :

« ـ حدثينى عما بك

«وبصوت خافت حدثته ، عما جاءت لأجله .. وألقت إليه بخبيئة نفسهـا .

«وجلس ينصت إليها فى ذهول ، وقد اتكأ على المكتب مطرقا برأسه فى يأس شديد .

«وأخيرا كفت عن الكلام وساد الحجرة صمت عميق .

«وبعد برهة قال بصوت خافت متهدج :

« ـ أنت مجنونة .. طائشة .

« ـ لست مجنونة ولا طائشة . ولكنى لا أريد أن أخونك أو أخدعك لأنى أجلك وأحترمك .

« ـ ألا تمنحين نفسك فرصة للتفكير ؟

« ـ لقد فكرن كثيرا .. إنى لم أفعل ما يجعلنى أخجل حتى الآن .. ولا أريد أن أفعله أبدا .

«وهز الرجل رأسه ببطء ، وقال وهو يحاول التمالك والتماسك :

« ـ لك ما تشائين .

«ونهضت من مقعدها وغادرت الحجرة .

«وفى الطريق بدأ الضمير يثقل ضرباته ، وبدأت تحس ثقل الصدمة التى أنزلتها بالرجل الذى بذل كل ما يملك لإسعادها .. والذى وهبها البيت الهادىء والحياة المستقرة .

«وتصورت حاله الذى تركته عليها وانهياره ويأسه فازداد بها الندم وتمنت لو تستطيع أن تخفف بعض عبئه ، وأحست بأنها كان يجب عليها أن تضحى من أجله . وأن تقاوم رغباتها ونزعاتها .

«وبلا وعى ولا إرادة وجدت نفسها تعود القهقرى .. لتسأل زوجها المغفرة وترجوه العفو وتنبئه أنها قد صممت على أن تقهر قلبها وتطلب منه أن يساعدها على الخلاص من حبها .

«وكانت واثقة أنه سيقدر وسيغفر .. فهو طيب كريم .

«ومرة ثانية وقفت بباب المكتب ، ووجدت أنها لم تغلقه وراءها .. ودخلت المكتب ولم تكد تخطو بضع خطوات حتى وقفت مشدودة ذاهلة ..

«لقد وجدت الرجل الطيب الكريم .. اليائس المنهار .. الذى أنزلت به الصدمة الكبرى ولكنه كان فى حالة لا تنبىء عن طيبته ولا كرمه .. ولا كان يائسا ولا منهارا .

«لا .. ولا كان هناك أى أثر للصدمة التى أنزلتها به . كل ما وجدته قد زاد عليه هو امرأة بين أحضانه .

«حقا .. إنها كانت مجنونة ، لقد أدلت إليه باعترافها أول مرة والمرأة مختبئة فى إحدى الحجرات ، لقد كان مكتبه مأوى لرفيقته .

«لعنة الله عليها .

«كان خيرا لها أن تفعل كما يفعل .. فلا تفضح نفسها .. بل تبدو أمامه كما يبدو أمامها طيبا كريما»[٢٦] .

فهل ياترى هذه رؤية يوسف السباعى إلى الحب الذى شغل كثيرا من أعماله الأدبية القصصية الطويلة والقصيرة ؟

أى حب هذا الذى يجعل الزوجة تخون زوجها والزوج يخون زوجته ؟!

إننا نرفض هذا الحب ، ونلفظ هذه العاطفة ، لأنه حب محرم ، وعاطفة ليست صادقة .

أقول ، ليس هذا حبا ، وليست هذه عاطفة ، إن ما كان يصنعه أبطال الروايات والقصص القصيرة إنما كان بدافع الشيطان ليوقعهم فى ارتكاب الخطيئة .

وهكذا - كما رأينا - كان أدب إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعى ، أدب الجنس والنزعات الشريرة والشهوات التى تثير الغرائز المكبوتة .

لا غرابة إذن ، أن يعجب الفتيان والفتيات من طلبة وطالبات المدارس الثانوية بالأعمال الأدبية للكاتبين .

---

(٢٦) يوسف السباعى : ست نساء وستة رجال - رجل طيب - ص ١٠٣ ومابعدها .

وأنا زعيم بأن إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعى قد تأثرا فى أعمالهما الأدبية القصصية الطويلة منها والقصيرة بفلسفة الجمال عند «كانت» و«كروتشيه» حيث وجدنا موضوعات قصصهم التى عرضنا لها ، لا صلة لها بالقيم الأخلاقية والدين والأعراف وتجسدت النزعة الذاتية فى قصصهم الطويلة والقصيرة ، وكان العمل الأدبى عندهما من أجل اللذة والمتعة برغم ما كان يحتويه من شرور وآثام .

ثالثا : المسرحيـة

وكصنيع بعض الشعراء الغنائيين وأدباء القصة ، تأثر بعض كتاب المسرح بالفلسفة الذاتية وعلى رأسهم توفيق الحكيم فى إحدى مراحله الفنية التى جعل فيها أعماله الأدبية للمرأة وكانت مسرحياته تصويرا لما يكنه للمرأة فى تلك المرحلة من كراهية إلى حد جعل المجتمع فى ذلك الوقت يطلق عليه «عدو المرأة» .

وفى مسرحيته الطويلة «سر المنتحرة» التى كتبها فى عام ١٩٢٩ نجده يجسد هذا العداء .

وفى هذا العمل الأدبى نرى الدكتور «محمود» طبيب الأمراض النفسية والعصبية الذى تجاوز الخمسين من عمره فى عيادته مع «عزيزة» الفتاة التى تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما وقد راحت تصرح له بما تكنه نحوه من حب وغرام ، بينما يخبرها بأنه لن يبادلها الحب لأنه زوج لامرأة فى الثلاثين من عمرها .

وعندما فشلت عزيزة فى التأثير فيه ، ووجدت أنه لن يبادلها مشاعرها وأحاسيسها ألقت بنفسها من النافذة وراحت ضحيته .

وتنشر الصحف والمجلات حادثة انتحار الفتاة ، وتغير هذه الحادثة من سلوك الدكتور محمود ومجرى حياته ظنا منه بأن «عزيزة» كانت تهيم حبا فيه وأنه وراء انتحارها .

«إقبـال : (للوصيفة إذ تفرغ من الضيفة وتتقدم بالفنجان إلى ستها)

أين سيدك كل هذا الوقت ؟

الوصيفة : فى الحمام ياستى

إقبـال : (تنظر إلى الأم نظرة ذات معنى)

طبعا ... فى الحمام ... نعم . دائما

(ثم تلتفت إلى الوصيفة ثانية)

والحلاق ؟ وعاملات المحل ؟

الوصيفة : لم يحضروا بعد .

إقبـــال : (للوصيفة مشيرة إلى مائدة صغيرة)

طيب . أتركى الصينية وانصرفى .

(الخادمة تفعل ما أمرت به وتنصرف)

الأم : (فى دهشة) .

الحلاق وعاملات المحل ؟ ! ..

إقبال : نعـم ياسيدتى . الحـلاق . حلاق من أشهـر حانوت ، تعاونه آنستان ، إحداهما تقوم بتنظيف وصقل أظافر اليد ، والأخرى أظافر القدم .

الأم : أتمزحـين ؟

إقبال : كلا ياسيدتى لقد أمسى اليوم فى البيت لا عمل له ولا شغل سوى الحمام والحلاق والخياط ، ويظل الحلاق بالأصباغ يخضب ما وخط الشيب من شعره ... وبالمساحيق والكهرباء يفرك ما بجلد وجهه من تجاعيد كى يعيد إلى البشرة رونقها وشبابها .

الأم : إنا لله وإنا إليه راجعون .

إقبال : نعم . بعد هذه السن يعود إليه الشباب من جديد .

الأم : يا للعجب .

إقبال : إنك لو شاهدته الآن لرأيت رجلا لا تعرفينه ، ولم يسبق لك به عهد . متى تلاقيتما آخر مرة ؟

الأم : رأيته آخر مرة منذ خمسة شهور

إقبال : ليلة الأربعين .

الأم : نعم ، وبعدئذ بلغتنى أخباره الجديدة .

إقبال : ألم تذهبى إليه فى العيادة .

الأم : ذهبت مرة .

إقبال : شاهدت طبعا صورة الفقيدة مكبرة فى صدر الحجرة .

الأم : نعم . ومن أجل هذه الصورة بالذات جئت أحادثك .

إقبال : آه ياعزيزتى ، هذه الصورة تعرض كل يوم على أفواج السيدات والآنسات المتدفقات على العيادة الآن فى غير انقطاع .

الأم : علمت أخيرا ..

إقبال : نعم ، ذلك حديث البلد ، إن الصحف كلها نشرت بحروف كبيرة خبر الحادث فى حينه . وروت أن آنسة جميلة من أسرة معروفة انتحرت من أجل الدكتور عزمى الطبيب المعروف ألم يطلعك أحد على أقوال الصحف يومئذ ؟

الأم : أطلعونى .

إقبال : ألا تتصورين بعد ذلك سيدات القاهرة وآنساتها يهرعن إلى هذا الطبيب مدفوعات على الأقل بحب الاستطلاع .. يشاهدن الرجل الذى انتحرت من أجله آنسة جميلة معروفة ؟ ثم ألا تتصورين وابل الهوى والمغازلة والمطارحة يمطر على العيادة من كل جانب ؟

الأم : (فى مرارة)

شىء جميل .

إقبال : (فى مرارة أيضا)

أليس كذلك ؟ رجل علم جاوز الخمسين ينقلب إلى دون جوان !

الأم : وكيف تصبرين أنت على هذا الحال ؟

إقبال : ماذا أصنع ؟ لقد فكرت طويلا فى الأمر ، لى منه غلام ، إنى أتحمل كل شىء من أجل (جمال) ، ومع ذلك ...

(فى تردد وهى تلتفت إلى مرآه فى الحائط)

ومع ذلك من يتزوج امرأة مثلى الآن ؟

(تتنهـد)

امرأة محطمة !»[٢٧] .

أنت واجد حادثة انتحار «عزيزة» وقد غيرت بناء شخصية طبيب الأمراض النفسية والعصبية وجعلته إنسانا نرجسيا ورأينا السيدات والآنسات عقب نشر الحادثة فى الجرائد والمجلات وقد أكثرن من التردد على عيادته وكل منهن تقترب إليه حبا وعشقا ، ظنا منهن بأن «عزيزة» ابنة الثامنة عشر ربيعا قد انتحرت لأنه لم يبادلها عاطفة الحب .

ووجدنا الدكتور محمود عزمى طبيب الأمراض النفسية لم يعد يهتم بزوجته وابنه ، وراح يشغل وقته مع السيدات والآنسات اللاتى يترددن على العيادة حبا وعشقا فيه .

وعندما أحست الزوجة بإهمال زوجها لها ولإبنها راحت تكشف له عن سر انتحار «عزيزة» وتخبره بأنها لم تنتحر من أجله ، وإنما ضحت بنفسها من أجل سائق سيارتها الذى ارتكبت معه الإثم والمنكر ، وهجرها ليتزوج فتاة أخرى .

وعندما يعرف الدكتور محمود عزمى هذه الحقيقة يصاب بأزمة نفسية وتعود إليه الشيخوخة كما كانت من قبل ولم يعد نرجسيا ..

واستغلت زوجه «إقبال» هذا التغيير الأخير ـ الذى وصل إلى حد إصابته بالأزمة النفسية ـ للنيل منه .

---

(٢٧) توفيق الحكيم : المسرح المنوع ، القاهرة . مكتبة الآداب ١٩٥٦ ـ سر المنتحرة ـ ص ٣٧ ـ ٣٩ .

«إقبال : وفر على نفسك مؤونة حب الاستطلاع هذا ، فإن اليأس إحدى الراحتين ، إنى أنصح لك بمغادرة القاهرة زمنا والذهاب إلى عزبتك بالريف إن من فى سنك يفيده كثيرا الهواء النقى ، ويجدد قواه الهدوء و عيش المزارع .

محمود : من فى سنى ؟ ! ..

إقبـــال : (وهى تخطو أمام المرآه)

بلا شك ، من فى سنك طبعا .

محمود : وأنـــت ؟

إقبـــال : (تلتفت إليه سريعا)

وأنا .... ماذا تعنى ؟ ..

محمود : ألا تذهبين معى ؟

إقبـــال : (تعود إلى المرآة وتخرج من حقيبتها علبة مسحوق أبيض تطلى نحرها مكان أظافر محمود)

لا .

محمود : أذهب وحدى ؟

إقبـــال : أتريد أن أترك خياطتى وأذهب مع رجل

محمود : مع رجل مسن ... قوليها ... قوليها ...

إقبـــال : لا أستطيع أن أقبر نفسى فى الريف قبل الأوان .

محمود : تقبرين نفسك معى ؟

إقبـــال : أنت تعلم أنى مازلت فى مقتبل العمر . ولو كانت فى رأسك ذرة من عقل لأيقنت أن من المستحيل على امرأة فى مقتبل العمر أن تنغص راحتها مختارة خمس دقائق من أجل مثلك . لكنك أعمى لا ترى نفسك ، ومغفل استطاعت فتاة أن تلعب بك فى الحياة وبعد الموت . نعم أنظر إلى أى حد استطاع ميت

أن يلعب بحى . لعبت بك . وجعلت نساء البلد يلعبن بك . كل هؤلاء النساء يأتين لمشاهدتك طبعا كما يذهب الإنسان إلى حديقة الحيوان لمشاهدة مخلوق غريب .

محمود : أشكرك .

إقبـــال : لست أقصد إهانتك ، إنما أقصد فقط أن أنبهك إلى الحقيقة . وهى أنك رجل قد فنى وانتهى وينبغى لعينيك أن تسدد جهة القبر . أنظر إلى وجهك ذى التجاعيد . أى امرأة تسر لمنظرك وهى صادقة مخلصة فى هذا السرور ؟

محمود : أى امـرأة ؟

إقبـــال : طبعا ، ما من امرأة على هذه الأرض .

محمود : حتى أنت !

إقبـــال : نعم حتى أنا . مادمت تريد منى الصدق والصراحة ، فإنى أقول لك أنا ككل امرأة لا يمكن أن أرى فيك غير شيخ مفروغ منه . لأنى لا أستطيع أن أنكر الواقع . ومن الحقائق مالا يملك إنسان جاد إنكارها أو معارضتها . وكذبت امرأة قالت فيك غير ذلك.

محمود : حتى أنت ؟

إقبـــال : قلت لك إنى امرأة ككل النساء .

محمود : أنسيت ما أفضيت به إلى أمس ؟

إقبـــال : كنت أخدعك بالألفاظ كما خدعتك باقى النساء .

محمود : (فى مرارة)

حتى أنت تخدعين

إقبـــال : إنى لست معصومة .

محمود : أولا يحس قلبك بحب لى إذن ؟

إقبـــال : حب لك . إنك تطلب إلى المرأة المستحيل .

محمود : أنت تقولين هذا يا إقبال ؟

إقبـــال : إنى صريحة مع الأسف . إنى لأعجب كيف يفكر فى الحب من فى سنك .

محمود : (يطـرق)

تريدين أن أصدق أنى انتهيت ؟ ...

إقبـــال : أعجب لماذا تريد أن أحبك اليوم ، إلا أن تكون كالغريق تريد أن تعتمد على أى قلب .. ولكن حتى هذا القلب الواحد الذى بقى لك فى أفق الأمل إن فتحته فلن تجد فيه غير رماد بارد ، ولن يقوى مثلك اليوم على نفخ النار فيه .

محمود : (فى تعب وقنوط)

أشكرك يا إقبال .

إقبـــال : (وهى تتحرك للإنصراف)

ألا ترى معى أن الكلام معك فى الحب موضوع مضحك ؟ !

محمود : مضحـك ؟ !

إقبـــال : مضحك للغاية ! ألا ترى ذلك ؟ ...

(تنظر فى معصمها)

الساعـة الآن السادسـة ، ينبغى لى أن أنصرف إلى ما هو أهم ... خياطتى تنتظر ...»[٢٨] .

أنت واجد (إقبال) الزوجة بعد اكتشافها الحقيقة وقد راحت تعامل زوجها بغلظة وقسوة وعنف ورأيناها تسخر منه وتوجه إليه الإهانات وتصرح له بأنها كانت تخدعه ، وأنها لا تشعر نحوه بحب ، وفى نهاية

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٥ ومابعدها .

حديثها معه تؤكد له بأن موعد خياطتها أهم منه . وأن عليها أن تتركه وحيدا يعانى الآلام والأوجاع النفسية .

وكيف يغفل عنها أنها بهذه الغلظة التى تعامله بها تضاعف من أزمته النفسية وتجعل حالته تزداد خطورة .

لقد كان يجب عليها أن تقف بجانبه فى هذه الفترة التى يعانى فيها من هذه الأزمة النفسية الحادة وتتخلى عن هذه النرجسية التى تمكنت منها فتحنو عليه وتخفف عنه .

وتجسدت هذه النزعة الذاتية فى المسرحيات القصيرة للكاتب .

وفى مسرحيته القصيرة «أمام شباك التذاكر» التى كتبها أثناء وجوده فى فرنسا يصور علاقته بفتاة فرنسية كانت تعمل موظفة بمسرح (الأوديون) فى باريس ..

«هـو : دعينا إذن من هذا كله .. ماعلينا .. أحقا أنه حكم على ألايكون لى غير الوقوف فى آخر الصفوف ؟ ! ...

هى : بالتأكيد ! ... مادمت للأسف لا أملك (فوتيلا) خاليا ! ...

هـو : وهل يظل ذلك (الفوتيل) دائما مشغولا ؟ ! ..

هى : هذا ما أجهله ..

هـو : ومكان الوقوف هذا ... لا يسمح لى بأكثر من المجىء ، لأزرع نفسى أمام شباك التذاكر ؟ ...

هى : يقينـا ! ...

هـو : أهذا كل حقى ؟ ...

هى : نعـم ! ...

هـو : ألا ترين أنك بذلك تظلمينى ! ...

هى : ربما ، ولكن ما حيلتى ؟ ..

هـو : تستطيعين توسيع دائرة حقوقى ! ...

هى : عفوا ياسيدى إذا سألتك عن صنعتك ! ... أنت من رجال القانون بلاشك ! ... أليس كذلك ؟ ...

هـو : صدقت ! ... ولكننى أريد أن أسألك شيئا ! ...

هى : مـاذا ؟ ...

هـو : أريد أن تحبينى ... بأى ثمن ! ...

هى : هذا طلب مدهش ! ! ...

هـو : وما يدهشك ؟ ...

هى : (ضاحكة)

خير لك أن تقول أريد أن تحبينى بأمر (البوليس) ! ... وإلا أحكم عليك بمخالفة ! ...

هـو : عفوا ... إنى تنقصنى رقة الأسلوب ! ...

هى : (بجـد)

لست أقول ذلك ... لا ! ...

هـو : بلى ! ... بلى ! ... وأنت محقة ! ... إنى أعرف عيوبى ! ... وطالما قيل لى : إن التى تحبنى يجب أن تكون امرأة غريبة ، عجيبة فى أفكارها وأساليبها ... حتى ترضى بشاعر مجنون مسـرف .. فنان يحب الفوضى والهوس ، ويحيا الحيـاة البوهيمية ... ولن تحبنى قط امرأة عادية ، ترعى أصول المجتمع ، وتحافظ على التقاليد ! ...

هى : قل لى ! ... لماذا تريد منى أن أحبك ؟ ...

هـو : لأنى أريد ذلك ... وكفى ! ...

هى : أعرف ... ولكن لماذا ؟ ..

هـو : لأنى وجدت فيك ما أبحث عنه ! ...

هى : وهـو ؟ ...

هـو : روحك ! ... ذكاؤك ! ... نظراتك ! ... شعرك المقصوص كل ما فيك ينبىء بامرأة عادية ، ثائرة ، متطلعة ، تسخر من كل شىء ، ولا تحافظ إلا على أصول عقلها السليم أو غير السليم ! ... وهى خليقة بأن تحول أوجاع الحياة وأحزانها - أيا كانت - إلى مسرات ! .. نوع المرأة الخطرة ! .. لكن المرحة الفكهة ... هذه هى صورتك ! ... وأزيد على ذلك أن امرأة كهذه ، لا تستطيع أن تستغنى عن رجل من نوعها ! ... رجل له مثلها - أساليبه الخاصة ! ...

هى : ربما ! ... ولكننى أؤكد لك أننى لا أستطيع أن أحبك ، لأن قلبى الآن ليس ملكى ! ...

هـو : أؤكد أنك ستحبيننى ! ! ...

هى : أيمكن حب اثنين فى وقت واحد ؟ ...

هـو : ولم لا ؟ ...

هى : كيـف ؟ ...

هـو : الرجل يحب حليلته وخليلته فى وقت واحد ، كما يحب كمنجته وقطته معا ! ... ولو أن ميزان الحب لهما غير متساو ! ... ولكنه مع ذلك يحب الاثنين ! ! ...

هى : ليس هذا منطقيا ! ...

هـو : بلى ! ليس من المنطق القول بأنه لا يمكن إلا حب شىء واحد فالحياة أقصر من أن تكرس لحب واحد ! ..

هى : لا أرى ذلك ! ...

هـو : سوف ترين ! ... والآن إلى الملتقى أيتها الآنسة ! .. هاك عنوانى ! ... فإذا أردت رؤيتى فأرسلى إلى كلمة ! ...

هى : عبثا تحاول .. لن أكتب شيئا ! ...

هـو : بلى ... إنك امرأة غير عادية ! ...

هى : لا تعتمد على ذلك ! ... فى وسعك أن تأتى لترانى متى شئت ! ... فلست أحول دون من يريد رؤيتى ! ... ولكن لا تنتظر منى أن أكتب إليك ، فهذا محال ... محال !! ...

هـو : هذه كبرياء موروثة فى المرأة ، ولا محل لها ! .. ولكنها كبرياء مؤقتة ، ومادمت امرأة غير عادية ... فلا تلبث كبرياؤك أن تنتهى سريعا .. ويجىء يوم يدفعك حب استطلاعك إلى الكتابة إلى !..

(يخرج هـو ....)

(تفكر لحظات ... ثم تنادى)

هى : إلى الملتقى ياسيدى ... سوف تنتظر طويلا ... (مدام كوزان) ... (مدام كوزان) !

الحارسة : ماذا حدث ؟

هـــى : قولى لى يا (مدام كوزان) ... أتعرفين أين هو مطعم (الأب لويس) ؟؟ ...

الحارسة : نعم أعرف ... مطعم (الأب لويس) فى شارع ..»[٢٩] .

وقد كتب توفيق الحكيم هذا العمل الأدبى باللغة الفرنسية فى عام ١٩٢٦ وترجمه إلى اللغة العربية أحمد الصاوى محمد عام ١٩٣٥ .

وتعبر المسرحية عن تجربة ذاتية بحتة مر بها الكاتب فى أثناء وجوده فى باريس ، وفى هذا العمل الأدبى نجد الحكيم الذى قام بدور البطل فى

---

(٢٩) توفيق الحكيم : المسرح المنوع - أمام شباك التذاكر - ص ٨٠٣ ومابعدها .

التمثيلية ، يطلب من الفتاة أن تتقرب حبا إليه على الرغم أنها صرحت له بأنها تربطها علاقة عاطفية بشاب آخر .

وراحت الفتاة ـ صرافة التذاكر ـ تتمنع فى البداية ، لكنها فى نهاية الحوار وجدناها وقد قررت أن تشارك الكاتب مشاعره ، ونزعم أن ما دفعها إلى هذا إغراء المال الذى عرضه عليها فى بداية حديثهما .

وأرى أنها لم تكن صادقة فى شعورها نحوه ، وإنما كانت تخدعه من أجل الاستيلاء على ما يمتلكه من نقود .

ولقد وصل إسراف الحكيم فى عمله الأدبى إلى الحد الذى رأيناه وقد راح يصف ذاته بأنه شاعر مجنون مسرف ، وأنه فنان يحب الفوضى والهوس ، ويحيا الحياة البوهيمية .

وفى مسرحيته «حديث صحفى» التى كتبها عام ١٩٣٨ ، يكشف عن كراهيته للمرأة والأسباب التى جعلته لا يفكر فى الزواج .

«السكرتيرة : الساعة دلوقت خمسة ... وفيه ميعاد ، مع مندوب مجلة (المصور) جاى يعمل حديث مع الأستاذ ! ...

هـــــو : حديث ؟ ... موضوعه إيه ؟ ...

السكرتيرة : موضوعه ... (لماذا لم يتزوج عدو المرأة) ؟ ! ..

هـــــو : لماذا لا يتزوج ؟ ... شىء جميل ! ... وده موضوع ؟ ... أنا مستحيل أعطى حديث زى ده ... الصحفيين دول مش فاهمين إيه المسألة ، وأنا كمان ماأقدرش أتكلم بالصراحة ، وأقول لهم إن الجواز عندى زى الموت ! ... حد بيروح للموت برجليه ؟ ... والا هو حضرته إللى يطب على الواحد منا كده غصب عنه ؟ ... أنا ما أقدرشى أحلف إنى مش رايح أموت ... وكمان ما أقدرشى أحلف إنى مش رايح أتجوز ... الجواز جايز يدخل على من الباب ده ، فى أى

ساعة النهارده ! ... بكره ! ... بعد سنه ! ... اتنين ! ... مين عارف ؟ ! ...

(جرس الباب يدق بشدة ....)

هـــــــو : اللهم اجعله خير ! ...

السكرتيرة : (تنهض مسرعة وتذهب ، ثم تعود وتقول بكل جد) واحدة ست بتقول إنها جايه علشان تتجوز حضرتك !! ...

هـــــــو: (كالمصعوق)

إيـــه ؟ ...

السكرتيرة : (تخفى ابتسامة)

أقول لها تدخل ؟ ...

هـــــــو : انت مجنونة ؟ ! ...

السكرتيرة : أنا مالى ... هى جايه علشان كده ! ....

هـــــــو : هى قالت لك إيه بالضبط ؟ ...

السكرتيرة : قالت كده

(تدخل فتاة رشيقة جريئة .....)

هـــــــى : أيوه أنا قلت كده ! ...

هـــــــو : يحملق فيها مستغربا) .

نعـــم ؟ ! ...

(السكرتيرة تنظر إليها لحظة ، ثم تخرج وتتركهما ..)

هـــــــى : أنا آسفة ... إنى قطعت على الأديب الكبير ، والروائى الشهير ، سلسلة أفكاره ... لكن أنا مضطرة ! ... بقى اسمع يا حضرة الروائى ، أنا تعودت فى حياتى ، أمشى

إرادتى على كل شىء فى الدنيا ! ... عمر ماحد خالف لى طلب ! ... عمرى ما طلبت حاجة ولا نلتهاش ! ... وأنا صغيرة قلت لبابا : أنا عايزه أتعلم ركوب (الموتوسيكل) !.. وفعلا جاب لى (موتوسيكل)

هـــــو : كويـــس ! ... ده أنـا لحـد النهـارده ، ماعرفـش أركـب بسكليت) ...

هـــــى : ولما كبرت شويه ، قلت لبابا يشترى لى باكار ٨ سلندر ، أسوقه بنفسى ! ...

هـــــو : برافـو ! ...

هـــــى : والنهارده لما سمعت ان فيه واحد اسمه (عدو المرأة) ...

هـــــو : ... قلت لبابا أنه لازم يشتريه علشان تسوقيه بنفسك ! ...

هـــــى : مضبوط كـده !!

هـــــو : وحضرتك متأكدة أن فى امكانك بالطريقة دى ؟ ! ...

هـــــى : طبعـا ... اللى خلانى قدرت أسوق (موتوسيكل) فى سن ١٢ ، وباكار ٨ سلندر فى سن ١٥ ، ما أقدرشى دى الوقت أسوق حضرتك .

هـــــو : أنا معترف صحيح إنى مانيش ٨ سلندر ، لكن ..

هـــــى : اطمئن ! ... أنا شاطره فى السواقه ...

هـــــو : وان حصل تصادم ؟ ...

هـــــى : ومالـه ؟ .. هو انت اللى رايح تسوق ؟ .. أنا المسئولة عن دفع جميع المخالفات والغرامات !! ...

هـــــو : والتحطيم ، والتكسير ، والتخرشيم ، كل ده حايجى فى مين ؟ . اعملى معروف ! ... أنا ... ياحضرة الآنسة قدامى شغل ! ... وعندى ميعاد .. صحفى ! ...

هـــــى : وأنا مش خارجه من هنا قبل ما أنفذ اللى فى دماغى ! ...

هـــــو : كويس خالص ! ... إيه بقى غية حضرتك من كده يعنى دلوقت ؟ ...

هـــــى : غيتى انى اثبت للناس انى قدرت أمشى (عدو المرأة) على العجين مايلخبطوش ؟ .. إحنا متراهنين على كده أنا وواحده صاحبتى ، ولازم أكسب الرهان ! ...

هـــــو : اللهم آمنت وصدقت ! ...

هـــــى : آمنت بإيه ؟ ...

هـــــو : باللى فى بالى من زمان ! ...

هـــــى : إلا على فكره ، قل بشرفك إنت ليه (عدو المرأة) ؟ ...

هـــــو : (بقوة ونفاذ صبر)

بالضبط علشان الاعمال اللى بتعمليها انت دلوقت ! ...

هـــــى : أنت غلطان . احنا ياستات بالرغم من كل شىء ، عندنا فضيلة ماتلقهاش عند الرجال ! ... هى اننا نحب نعرف عيوبنا ونصلحها .. قل لنا بالصراحة إيه هيه عيوبنا ، قبل ماتزعل منا وتعادينا ! ...

هـــــو : عيوبكم ؟ ! ... عيوبكم أن الواحدة منكم من نهار ماتعلمت تسوق (أوتومبيل) ، فهمت إن كل راجل فى الدنيا عبارة عن أتوموبيل ... وإن وثيقة الزواج عبارة عن رخصة سواقه !

هـــــى : يعنى بالاختصار عايزين أنتم يارجال اللى يكون فى يدكم (الدركسيون) ! ...

هـــــو : أنا مش عايز فى أيدى لا (دركسيون) ولا (فرملة) ! ... قلت لك ياستى أنا شخصيا ، ماأعرفشى أسوق (بسكلت)

كل المسألة انى راجل لازم أعيش فى حرية مطلقة ! ... يعنى لاحد يسوقنى ولا أسوق حد ... أما فيما يختص بغيرى من الاوتومبيلات ، يعنى بقية الرجال المتزوجين ، أو اللى لسه خارجين من (الاجانس) و(الجراج) على وش زواج فأنا نصيحتى انكم ياستات تعاملوهم بشىء من اللطف . ويكون أظرف لو أحسنتم بهم الظن»[٣٠] .

فى هذا النص يجسد توفيق الحكيم أسباب كراهيته للمرأة فى تلك المرحلة ، التى جعلته لا يفكر فى الزواج منها .

إنه يرى فيها الموت والقضاء على حياته وفقدان شخصيته ، وهو إنسان ينشد الحرية ويحب الحياة ويعتز بذاته .

وهكذا كان الحكيم ينظر إلى المرأة فى تلك المرحلة ، وكانت رؤيته إليها ذاتية بحتة وصورها فى بعض أعماله الأدبية عابثة لاهية ماجنة ، جامدة الأحاسيس والمشاعر .

وأنا زعيم بأن أسباب عداء الحكيم للمرأة إنما تعود إلى التجربتين العاطفيتين الفاشلتين اللتين مر بهما فى تلك المرحلة . وكانت التجربة الأولى فى القاهرة فى أثناء الدراسة الثانوية مع «سنية» ابنة الجيران التى أحبها وتزوجت شابا غيره وأما التجربة الثانية فقد عايشها الكاتب فى (باريس) مع صرافة التذاكر التى تحدث عنها فى مسرحيته القصيرة (أمام شباك التذاكر) وراح يتقرب إليها ويصرح لها بحبه وشعر فى النهاية أنها فضلت عشيقها الآخر عليه .

وقد استمر هذا العداء فى الأعمال الأدبية لتوفيق الحكيم حتى قبيل زواجه مع بداية الأربعينات .

---

(٣٠) توفيق الحكيم : المسرح المنوع ـ حديث صحفى ـ ص ٧١٨ ومابعدها .

نعنى ، لقد كانت حادثة زواجه من أهم العوامل التى جعلته يغير من هذه الرؤية الذاتية ، ولم يعد عدوا للمرأة بل راح يجعلها موضوعية فى كثير من أعماله الأدبية .

وقد تجسدت الذاتية المتطرفة فى المسرحية الطويلة «شقة فى الجيزة» لأمين يوسف غراب . وهذه المسرحية ، صورة مستوحاة من الذاتية الأوروبية التى تميزت بالعبث والعربدة .

وفى هذا العمل الأدبى ، نجد (حماده) المهندس و(منصور) المقاول اللذين تربطهما الصداقة وعلاقة العمل يعيشان عيشة بوهيمية وذلك على الرغم أن كلا منهما زوج ويعول أسرة .

«منصور : عايز تقول إيه ؟

حمـاده : كده ولا الذل اللى انت عايش فيه ده ؟

منصور : هو ذل بس ياحماده ...

حمـاده : مش بتحبهـا ؟

منصور : (فى حزن شديد)

ياريت باحبها وبس ياحماده ... دا انا باعبدها

حمـاده : وعملت إيه بقى لك تلات سنين .. ؟

منصور : ولا حاجـه ...

حمـاده : حتى السلام،إن سلمت عليك يادوبك بطراطيف صوابعها ...

منصور : ياريت ياخويا طراطيف صوابعهـا ... دا بطراطيـف ضوافرهـا المذببة دى اللى عامله زى منقار أبو قردان .

حمـاده : طيب . والفلوس اللى بتصرفها عليها دى كلها ؟

منصور : هى فلوس وبس ياحماده .. اسكت ياخويا اسكت ..

حمـاده : بذمتك .. بتصرف عليها كام فى الشهر ؟

منصور : مافيش لزوم ياحماده . مافيش لزوم ..

حمـاده : مش حرام ؟

منصور : (وكأنه يبكى)

تعرف أول امبارح حفيظه قبل ما اخرج قالت لى عايزه عشرين جنيه عشان أجيب هدوم الشتا أنا والاولاد قلت لها صهينى يا شيخه وسبتها ونزلت ، رحت المكتب فى الازهر مافيش دقيقه التليفون ضرب .

أهلا عليه هانم . أهلا ست الكل أنا راخر بقول الدنيا مالها منوره كده .

(مقلدا صوتها)

قالت لى أسمع بلاش رغى . قلت لها أفندم خدامك ..

قالت لى أنا امبارح رحت شيكوريل خدت حاجات من هناك ، روح ادفع الفاتورة وابعتها لى على البيت ، نزلت جرى بقى اللى فى ايدى فى اسنانى تعرف لقيت الفاتوره بكام .. ، تلتميه وسبعتاشر جنيه وتمنتاشر قرش ونص .

حمـاده : وعلى قلبك أحلى من العسل .

منصور : أعمل ايه ياحماده ..

(يكاد يبكى)

باحبها ياحماده . باحبها .. وياريت باحبها وبس .. باعبدها ياحماده ياخويا باعبدها .

حمـاده : وتقعد بالتلات ساعات والاربعة تنشف ريق العمال عشانَ تلاتة صاغ وأربعة صاغ . وأنا ماهيتى عمرها مااخدتها كاملة ..

منصور : دى حاجه ودى حاجه ياحماده .. ربنا مايوريك الحب .. دانا ساعة ماباشوفها واشوف رمش عينها ده ترفعه لفوق يبقى محسويك زى الورقة اللى يرميها الهوى لفوق .

حمـاده : بقى بتشوفها ..

منصور : فى الشارع وحياتك ، وإذا تكرمت وتعطفت وجالها خالها الطيب جت عندى فى المكتب شربت فنجان قهوة ..

حمـاده : وقابل انت كده ؟

منصور : أعمل ايه نفسى انتقم منها ، أذلها زى ما بتذلنى نفسى أوريها النجوم الظهر زى مابتوريني المر أشكال وألوان ... زى مابتخليني طول الليل نايم على ضهرى وعينى للسما أتلوى زى ما يكون سكاكين بتقطع فى قلبى .

حمـاده : كل ده ح ينتهى ..

منصور : مش معقول .

حمـاده : أنا اللى ح انتقم لك .. مش ح اخليها تجرى وراك فى الشوارع وبس ح اخليها تيجى لغاية هنا مش تبوس ايدك ، تبوس رجليـك ..

منصور : تعرف ساعتها أنا اللى ح ابوس رجليها[٣١] .

وهكذا نجد منصور المقاول يتيه حبا وعشقا فى (عليه) وينفق عليها بسخاء ، وجعل يده معها مبسوطة كل البسط ، وفى إحدى المرات نراه وقد أنفق عليها سبعة عشر وثلاثمائة جنيها وثمانية عشر قرشا ونصف قيمة ما أشترته من أشياء خاصة بها من (شيكوريل) . وهو سعيد جدا بهذا بينما نرى يده مغلولة مع زوجته وأولاده ويبخل عليهم بمبلغ عشرين جنيها هم فى حاجة ماسة إلى هذا المبلغ لشراء ملابس فصل الشتاء .

---

(٣١) أمين يوسف غراب : شقة فى الجيزة ، القاهرة . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ ص ٣٩ ومابعدها .

هذا السلوك السيىء نجده عند (حماده) الذى جعل الشقة التى اتخذها مكتبا لأعماله (الهندسية) منتدى للمنكر والفحشاء . ونراه وقد انتحل شخصية (الشيخ على) ـ الذى كان يقيم فى الشقة من قبله واتخذها مكانا لمزاولة مهنة الشعوذة والسحر وكان يتردد عليه الكثير من النساء والرجال .

وراح حماده يمارس عمل الشيخ على ليحظى بلقاء الفتيات الجميلات والعبث معهن . وأما القبيحات من النساء فكان يهرب منهن ويأمر خادمته بعدم تحديد موعد معهن(٣٢) .

فأنت واجد (حماده) وقد استغل مهنة (الشعوذة والتنجيم) من أجل خداع النساء حتى يقعن فى شباكه ، ونراه وقد انتحل شخصية (جلال) وهى الشخصية الوهمية التى جعلها زوجا لعلية فى جلسة من جلسات الدجل معها وطلب منها التقرب والتودد إليه حتى يتم الزواج بينهما .

ولما كانت عليه لا دراية لها بجلال ، فقد استغل حماده جهلها به لينتحل شخصيته ويخدعها ويرتكب معها الآثام .

وأنت واجد كذلك (عليه) التى كانت على علاقة بمنصور واستغلت هذه العلاقة للإنفاق عليها بسخاء راحت تتقرب إلى حماده الذى انتحل شخصية جلال الذى أخبرها أنه من الأثرياء ويمتلك خمس عمارات فى الإسكندرية ودمنهور وربعمائة رأس من الماشية وعزبة فى أبى حمص فقبلت الزواج منه .

ونزعم أنها لم تتقرب إليه حبا لشخصيته وإنما طمعا فى ماله الذى تريد أن تستحوذ عليه .

وما صنعه (حماده) الذى انتحل شخصية (جلال) مع (عليه) من خداع وكذب عندما ادعى أنه من الأثرياء ويمتلك العمارات وهو فى الحقيقة لا يمتلك شيئا من هذه الثروات التى تحدث عنها وإنما صنع هذا ليوقعها فى شباكه ، نراه وقد اتخذه مع غيرها من النساء .

---

(٣٢) المرجع السابق ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

وقد وصل الانحلال الخلقى والعبث والمجون عند حماده ومنصور إلى الحد الذى نراه فيهما وقد ارتكب كل منهما الآثام مع زوجة الآخر .

«حماده : (وهو يرفع يده صارخا)

اجلســـى ..

نامى .. نامى .. لا تتحركى

حفيظه : (وهى تنام وتلقى بظهرها على الكنبة)

حماده : (مسترسلا)

نامى .. نامى .. نامى

(لنفســه)

لقد نامت .. لقد نامت ..

(يمد يده ويتحسس شعرها وخديها طويلا ..)

أفتحى عينيك ... افتحى عينيك .. انهضى

حفيظه : (تنهض سريعا)

حماده : انزعى هذا المعطف ..

حفيظه : (تنزع المعطف سريعا وتلقى به على الأرض وهى ترتعش)

حماده : والآن اقتربى منى .. اقتربى .. اقتربى

حفيظه : (تقترب منه حتى تدانيه)

حماده : (فى عنف شديد)

امسكى بكتفى ..

حفيظه : (سريعا ترفع يديها وتمسك بكتفيه)

حماده : (صارخا)

اضغطى ..

حفيظه : (تضغط على كتفيه)

حماده : اضغطى .. اضغطى .. اضغطى ..

(بفتح ذراعيه سريعا ويحتوى جسدها فى صدره ويقبلها فى عنف . فى حين يدخل منصور فجأة وما أن يرى المنظر حتى يقف ذاهلا) ..

منصور : (وهو يلطم خديه بعنف)

يخرب بيتك ..»[٣٣] .

فأنت واجد (حماده) فى هذا المشهد وقد اتخذ مهنة (السحر والشعوذة لارتكاب المنكر والآثام مع (حفيظه) زوج صديقه (منصور) ، وكصنيع (حماده) مع (حفيظه) ، وجدنا (منصور) وقد توطدت العلاقات الجنسية بينه وبين (سميره) زوجة صاحبه (حماده) منذ الأيام الأولى لزواجهما .

ونجد سميره تصرح بهذه العلاقة بلا حياء أو خجل ، وتؤكد أن ابنها «فهمى» الذى كان (حماده) يثق فى أنه الابن الشرعى له ، ليس من صلبه ، وإنما كان نتاج خطيئتها مع صديقه منصور .

وراحت (سميره) تكشف النقاب عن هذه العلاقة فى حديثها مع (حماده) الذى كان قد انتحل ـ كما قلنا ـ شخصية الشيخ على وأجاد محاكاتها فى كثير من مواصفاتها إلى الحد الذى جعل زوجته (سميره) تصرح له بما ارتكبته من آثام مع (منصور) ظنا منها أنه «الشيخ على».

«حماده : والآن تكلمى .. ماعلاقتك بزوجك ؟

سميره : ماباشوفوش ..

حماده : أيـن هـو ؟

---

(٣٣) المرجع السابق ص ٩٨ ـ ٩٩ .

سميره : مااعرفش ..

حماده : وأنت هل تحبينه ؟

سميره : لا ماباحبوش ..

حماده : لا تحبين زوجك .. ؟؟

سميره : أيوه ماباحبوش ..

حماده : هل تحبين شخصا آخر ؟

سميره : أيـوه ..

حماده : من هو الذى تحبينه ؟

سميره : منصور ..

حماده : (مضطربا جدا)

منصـور.؟؟

سميره : أيـــوه منصـور المقاول .. صاحب جوزى .. اللى جوزى بيشتغل عنـــده ..

حماده : منذ متى تعرفينه ؟

سميره : من اتناشر سنه .. من أيام مااتجوزت حماده وهو كمان بيحبنى . بيحبنى قوى قوى .. وبيصرف على وعلى ابنه ..

حماده : (فى ذعر شديد)

ابنه .. ابنه مين ؟؟

سميره : ابنه فهمى .. فهمى دا مش ابن حماده زى حماده ما هو فاهم .. دا ابن منصور .. واللى يعرف الحقيقة دى أنا ومنصور وبس ..

حماده : (صارخا فى جنون وهو يلقى باللثام من على وجهه)

يا مجرمـة

سميره : حماده !

حماده : فيهمي مش ابنى .. ابن منصور .. ابن حرام .. ابن زنا ... فيهمي مش ابنى .. ابن جريمة .. يارب»[٣٤] .

وهكذا ، وجدنا توفيق الحكيم وأمين يوسف غراب فى أعمالهما الأدبية المسرحية ، وقد تأثرا بفلسفة (كانت) و(بندتوكروتشيه) . وكانت مسرحياتهما صورة مستوحاة من الفكر الأوروبى فى الفلسفة الذاتية بل إننا رأينا الكاتبين فى أعمالهما التى عرضنا لها وقد أهملا القيم الروحية والأخلاقية ومواضعات المجتمع . وتجسدت عاطفة الأديب فى مسرحيات توفيق الحكيم وهى الأعمال التى كانت انعكاسا للتجربتين العاطفيتين الفاشلتين اللتين مر بهما الكاتب وتركتا أثرا سيئا فى إنتاجه .

---

(٣٤) المرجع السابق ص ١٤١ ـ ١٤٢ .